لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

البهاء زهير

بحث بقلم

مصطفى عبد الرازق

[الطبعة الثانية]

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م

البهاء زهير

بحث بقلم

مصطفى عبد الرازق

[الطبعة الثانية]

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

عرفت شعر البهاء زهير إذ أنا صبيّ أقرأ على والدى ـ يرحمه الله ـ شيئاً من كتب الأدب فى بعض الليالى . وقد أحببت شعر البهاء زهير مذ عرفته .

كان يتأتّى لعقلى الناشئ أن يستشفّ معانيه من ثنايا ألفاظه اللطيفة وتراكيبه ، على حين تقوم الألفاظ والتراكيب حجاباً دون المعانى كثيفاً فى الشعر أحياناً وفى النثر . وكان موقع وزنه الموسيقى و نَغَمه يستثير فى نفسى أريْحيّة وطربا ، حتى لتأثر بذلك ذوقى ، فهو يهفو فى البيان إلى نوع من الأنغام والوزن .

ثم درست بعد ذلك سيرة البهاء زهير فيما كتب الكاتبون عنه وفيما حفِظت لنا الأيام من آثاره ، فتجلى لى من امتياز الرجل وتفوّقه ما ملأنى حباً له وتقديرا .

البهاء زهير مثال من مُثُل الخلق العظيم : يجمع إلى حب الخير وفضيلة العفو قوّةَ الشخصية وشرفَ النفس وعزّةَ الإباء .

وتلك صفات لا تجتمع إلا لأهل الفِطَر الفائقة ، خصوصاً فى عصر كعصر البهاء زهير ولمن كان فى مثل منصبه .

كان البهاء زهير صديقاً للشاعر المشهور جمال الدين المصرى يحيي بن مطروح الذى وُلد بأسيوط سنة ٥٩٢ هـ ، ثم أقام بقوص زمنا . وفى قوص تعارف البهاء زهير وابن مطروح ، وعاشا كالأخوين أيام الصبا ، ثم اتصلا معاً بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب من قبل أن يتولى الملك فى حياة أبيه الملك الكامل ، واستمرا فى خدمته بعد أن صار ملكا .

أما ابن مطروح فكان فى صورة وزير لدمشق ، وحسنت حاله وارتفعت منزلته .

قال ابن خِلِّكان : « وفى سنة ٦٤٦ عزل ابن مطروح عن ولاية دمشق ... ... ثم عاد الملك بعسكره إلى الديار المصرية وابن مطروح فى الخدمة والملك الصالح متغير عليه متنكر له ، لأمور نَقَمها عليه . وخيّم الملك الصالح عسكره على المنصورة وابن مطروح مواظب على الخدمة مع الإعراض عنه . ولما مات الملك الصالح وصل ابن مطروح إلى مصر وأقام بها فى داره إلى أن مات سنة ٦٤٩ » .

أما البهاء زهير فقد بلغ رتبةً تزاحم الوزارةَ جاهَها أو تزيد ، وهى رتبة الرياسة لديوان الإنشاء . وقد تنكّر له الملك الصالح أيضا فى أواخر أيامه وعزله ، فى حديث نرويه مفصلا بعد ، فأبى للبهاء زهير شرف نفسه أن يتنصل من ذنب لم تكن كل تَبِعته عليه ، وأبى له شممه أن يقيم فى الخدمة مع الإعراض عنه فرحل من فوره إلى داره ولزمها فقيراً معدماً حتى مات .

و إذا كان البهاء زهير عظيما فى خلقه ، كما رأيت ، فهو عظيم أيضاً بمقامه فى تاريخ الأدب العربىّ .

عاش البهاء زهير فى القسم الأخير من العصر العباسى ، وكان الأدب العربىّ فى هذا الدور قد جاوز المدى فى التنميق والعناية بالمحسّنات البديعية والسجع والإغراب اللفظىّ .

وأشهر أئمة الإنشاء فى ذلك العصر رجلان : أحدهما القاضى الفاضل محيى الدين ، أو مجير الدين ، أبو علىّ عبد الرحيم البيسانى ثم العسقلانى ثم المصرىّ ، وزير صلاح الدين وصاحب ديوان الإنشاء لعهده المتوفَّى سنة ٥٩٦ .

وثانيهما العماد الكاتب الوزير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حامد الأصفهانىّ المتوفى سنة ٥٩٧ .

ويلقّب القاضى الفاضل بشيخ البلاغة ، ويلقب العماد الكاتب بعمدة المنشئين .

وقد أدخل العماد أساليب الترسّل بما فيها من سجع وجناس واُقتباس واستعارات وكنايات ، فى المؤلفات العلمية ، فكتب فى التاريخ كتباً على هذا الطراز : مثل مؤلفه المعروف بالفيح القسى فى الفتح القدسىّ .

أما القاضى الفاضل فله فى كتابة الإنشاء طريقة تعرف بالطريقة الفاضلية ، سار على نهجها أهل عصره ومن جاء بعد عصره ، وفشت فى الأدب العربى . وقد سنّ سنناً فيما تصدّر به الرسائل والتواقيع وما تختم ، وفى أساليب الدعاء وغير الدعاء .

وتمتاز الطريقة الفاضلية بالإطناب وكثرة الاقتباس والتضمين والمطابقة والتورية والمجاز مع الإسراف فى الجناس وما إليه من المحسّنات اللفظية ؛ ومع الميل إلى المفردات الغريبة والتراكيب الفخمة .

عُيِّن البهاء زهير رئيساً لديوان الإنشاء فى الدولة الأيوبية ، فحل محلا كان القاضى الفاضل صاحبه من قبل ، وتولاه بعده تلميذان من أتباع مذهبه .

جاء البهاء زهير والطريقة الفاضلية فى عنفوان مجدها ، فابتدع هو فى الشعر والإنشاء نمطاً جديداً خرج به عن التقاليد المرسومة فى صور المخاطبات وفى الأساليب : فهو موجِز لا يحب الإطناب ، وهو مقتصد فى زينة اللفظ ، وهو نزّاع إلى الوضوح والبساطة فلا يرضى كثرة المجاز والكناية ، وهو عدوّ للجمود على نُظُم فى البيان تقتل مواهب الإبداع والتفنن .

ثم هو لا يريد أن يستبدل الناسُ بكلامهم العادىّ كلامَ الجاهلية الأولى إذا نظموا الشعر أو كتبوا ، وإنما يريد أن يصحح الشعراء والكتاب أساليبهم على مقتضى القواعد العربية ، حتى لا تنقطع الصلة بين ماضيهم وحاضرهم ، من غير أن يجنى ذلك على سهولة التفاهم ولا على حركة اللغة ونموها وحياتها .

هذا المذهب الجديد فى إصلاح الأدب العربىّ لم يلق فى ذلك العصر ما يمدّه ويقوّيه ، ولم يكن البهاء زهير بفطرته السمحة وخلقه الوديع رجلَ كِفَاح يجاهد متحمساً فى سبيل دعوة لمذهب جديد .

لم يرق لكثير من الأذواق التى أفسدها التقليد هذا المذهب الذى يفك عنها قيودها ويخلّصها من التكلّف إلى مسايرة الفِطَر .

ولقد أغفل المؤرخون الذين وقفنا على مؤلفاتهم شأن البهاء زهير فى ديوان الإنشاء ، حتى من تخصص منهم بهـــذا الموضوع كالقلقشندى صاحب كتاب صبح الأعشى ، فلم يرو لنا منهم أحد شيئاً من الرسائل التى كتبت بقلمه على كثرة ما نقلوا من رسائل كتّاب هم دونه مقاما .

وكل ما عثرنا عليه من ذلك رسالته فى الردّ على كتاب لويس التاسع ملك فرنسا إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وسنعرض لها فيما بعد .

ذكر هذه الرسالة الإسحاقى فى تاريخه ، ثم أوردها المقريزىّ فى خططه ، ونقلها على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية .

وهذه الرسالة المفردة تهدى ، عند مقارنتها بما كان يكتبه القاضى الفاضل والعماد الكاتب وأضرابهما ، إلى المَنَازع التى اختص بها البهاء زهير ويعين على ذلك ديوان شعره . وعسى أن يوفَّق الباحثون إلى أخوات لهذه الرسالة تزيدنا علماً بطريقة البهاء زهير وخصائصها .

هذا ، ولست أعرف شاعراً نفخت مصر فيه من روحها ما نفخت فى البهاء زهير ، فهو مصرىّ فى عواطفه ، وفى ذوقه ،

وفى لهجته إلى الغاية القصوى ، و إن كان مولده فى بلاد الحجاز .

من أجل ذلك كله ، وضعتُ هذا البحث فى البهاء زهير الشاعر المصرىّ ، إحياء لذكرى رجل جدير بأن يحيا بيننا تَذْكاره . وقد سبقنى فى العام الماضى إلى نشر بحوث فى البهاء زهير وشعره الأستاذان المنشاوى والسقا المدرسان بالمدارس الثانوية الأميرية ، والأستاذ الشايب المدرس بالجامعة المصرية ، واطلعت على ما كتبوا بعد أن فرغت من رسالتى .

وقد تحرّى الأساتذة مطابقة المنهج الذى وضعته وزارة المعارف لدرس الأدب العربى وتاريخه ، فلهم فى البحث وجهة غير وجهتى ، وهذا ما يسوِّغ لى أن أنشر رسالتى بعد أن نشروا كتابيهم القيِّمين ، معترفاً بفضلهم ، مثنياً عليهم جميل الثناء .

مصر فى مارس سنة ١٩٣٠ — مصطفى عبد الرازق

البهاء زهير

أبو الفضل[1] زُهَيْر محمد بن على بن يحيى بن الحسن بن جعفر ابن منصور بن عاصم المهلّبىّ العَتَكىّ الأَزْدىّ الملقّب بهاءَ الدِّين المعروف بالبهاء زهير .

والمهلبىّ نسبة إلى المهلّب بن أبى صُفْرَة ، فالبهاء زهير ينتسب إلى المهلّب الذى كان من أشجع النّاس وكان سيِّداً جليلا .

رُوى أنّه قدِم على عبد الله بن الزُّبَيْر أيّامَ خلافته بمكة ، فخلا به عبد الله يشاوره ، فدخل عليه عبد الله بن صَفْوان بن أميّة القرشىّ ، فقال : من هذا الذى قد شَغَلك يا أمير المؤمنين يومَك هذا ؛ قال : أمَا تعرِفه ؟ قال : لا ؛ قال : هذا سيِّد أهل العِراق ؛ قال : فهو المهلّب بن أبى صفرة ! فقال المهلّب : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : سيِّدُ قريش ؛ قال : فهو عبد الله بن صفوان ؟ قال : نعم . وتُوُفِّى المهلّب سنة اثنتين وثمانين وخَلَّف عدّةَ أولاد نُجباء أجواداً أمجاداً ، وتسلسل المجد فى ذُرّيّته زمناً طويلا .

---

(١) فى كتاب النجوم الزاهرة لأبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ : « أبو الفضل وقيل أبو العلاء » .

والعتكىّ (بفتحتين) نسبة إلى العَتيك : بطن من قبيلة الأَزْد والأزد هى أزد شَنُوءةَ ، ويقال الأسد بالسين .

ويصف بعض المؤرخين البهاء زهيراً بالحجازىّ ، ويصفه بعضهم بالمصرىّ ، ويجمع له آخرون بين الوصفين .

ولئن كان مولد البهاء زهير بمكة أو بوادى نخلة بالقرب من مكة ، فى روايتين رواهما عنه ابن خِلِّكان الذى عرَفه واُجتمع به ، فإن البهاء زهيراً مِصرىّ المَنْشأ ، مِصرىّ الرُّوح ، مصرى العاطفة وهو القائل :

فرَعَى الله عهدَ مصرٍ وحَيّا ما مَضَى لى بمصرَ من أوقاتِ
حَبّذا النِّيلُ والمراكبُ فيهِ مُصعِداتٍ بنا ومُنحدِراتِ
هاتِ زِدْنِى من الحديثِ عن النِّيـ ـلِ ودَعْنى من دِجلةٍ والفُراتِ
ولَيَالىّ بالجزيرةِ والجيـ ـزةِ فيما اشتهيتُ من لَذّاتِ
بين روضٍ حَكى ظهورَ الطّواوِيـ ـسِ وجوٍّ حكَى بطون البُزَاةِ
حيث مَجْرَى الخليجِ كالحيّةِ الرقـ ـطاء بين الرياضِ والجَنّاتِ

والقائلُ :

ولم أرَ مصراً مثلَ مصرَ تروقُنى
ولا مثلَ ما فيها من العَيْش والخَفْضِ

وبعدَ بِلادى فالبِلادُ جميعُها
سواءٌ ، فلا أختارُ بعضاً على بعض

والقائلُ :

أأرْحَلُ عن مصرٍ وطيبِ نعيمِها وأىُّ مكانٍ بعدَها لِىَ شائِقُ
وأترُكُ أوطاناً ثراها لِناشِقٍ هو الطِّيبُ لاما ضُمِّنَتْه المفارقُ
بلادٌ تروقُ العينَ والقلبَ بهجةً وتجمَعُ ما يهوَى تقىٌّ وفاسقُ

وهو الذى يقول أيضاً :

سَقَى وادياً بين العَرِيشِ وبَرْقةٍ من الغيثِ هطَّالُ الشآبيبِ هتانُ
وحَيّا النسيمُ الرَّطْبُ عنِّى إذا سَرَى
هنالك أوطاناً إذا قيل أوطانُ
بلادٌ متى ما جئتَها جئتَ جنّةً لعينك منها كلما شئتَ رضوانُ
تُمَثِّلُ لى الأشواقُ أنّ ترابَها وحصباءَها مسكٌ يفوحُ وعِقيانُ
فياساكنِى مصرٍ تُراكم علِمتُمُ بأنِّىَ مالى عنكمُ الدهرَ سُلوانُ
وما فى فؤادِى موضعٌ لسواكمُ ومن أينَ فيه وَهْوَ بالشوقِ مَلآنُ
عسى اللهُ يَطوِى شقَّةَ البعدِ بيننا فتَهْدأَ أحشاءٌ وتَرْقأَ أجفانُ
علىّ بذاك اليومِ صومٌ نَذَرتُهُ
وعندِى على رأى التصوُّف شُكرانُ

ومَن كان هـذا هُتافه بحبِّ مصر فهو مصرىّ ؛ و إن كان مسقط رأسه بلاد الحجاز بإجماع من ترجموا له .

* * *

ولد البهاء زهير خامس ذى الحجة سنة ٥٨١ هـ (٢٧ فبراير سنة ١١٨٦) . وتوفى قبل مغرب يوم الأحد رابع ذى القعدة من سنة ٦٥٦ هـ (٢ نوفمبر سنة ١٢٥٨) بوَبَاء حدث بمصر والقاهرة ذلك العـام ، ودفن من الغد بعد صلاة الظهر بتربته فى القرافة الصغرى ؛ غيرَ بعيد من قُبّـة الإمام الشافعىّ رضى الله عنه فى جهتها القبلية .

ونشأ البهاء زهير فى مدينة قوص بالصّعيد الأعلَى كما ذكره السيوطىّ فى « حسن المحاضرة » . ولم يذكر ابن خلّكان فى ترجمته الطويلة للبهاء زهير نسبتَه إلى قوص ، لـكنه ذكر فى ترجمته لجمـال الدِّين بن مَطْروح أنّه كان بين الإثنين صحبةٌ قديمة من زمن الصِّبا ، و إقامتهما ببلاد الصّعيد حتى كانا كالأخوَين ، وليس بينهما فرقٌ فى أمور الدنيا ، ثم اتصلا بخدمة الملك الصالح وهما على تلك المودة . وابنُ مطروح من مدينة أسيوط . وقوص يومئذ هى أكبرُ مدنِ الصعيد ، وليس بأرض مصر بعد الفُسْطاط مدينةٌ

أعظمُ منها ، وهى باب مكة واليمن والنُّوبة وسواكن ، حَفلة الأسواق ، مُتَّسعة المرافق ، فيها تنزلُ القوافل الواردة من بحر الهند والحَبَش واليمن والحجاز ، وفيها كثير من الفنادق والبيوت الفاخرة ، والحمّامات والمدارس والبساتين ، ويسكنها أرباب الصنائع والفنون والتجار والعلماء والأغنياء ، وكانت ملتقى الحُجّاج المغاربة والمصريين والإسكندريّين ومن يَتّصل بهم ، منها يذهبون إلى جُدّة ، وإليها انقلابهم فى صدورهم من الحجّ .

وقوص من قديم الزمان مَنْبَعُ العلم والعلماء . ويقول صاحب كتاب « الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد » وهو كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الإدفوىّ المتوفَّى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧م) إن بقوص ستّةَ عشرَ مكاناً للتدريس .

ولم يرد للبهاء زهير ذكر فى كتاب الإدفوىّ إلا عرضاً .

ولم يحدِّثنا أحد ممن ترجموا للبهاء زهير عن سيرة أبيه ، غير أنّا وجدنا فى نسخة خطية قديمة بدار الكتب المصرية لديوان شعر البهاء زهير — رقم ٢٠٥١ أدب — وصف أبيه « بالعارف محمد قدَّس الله رُوحه » ، وينعت بذلك فى العادة أهل الصلاح والتقوى .

وانتقال والد البهاء زهير من مكة إلى قوص فى تاريخ غير معروف ، إلاّ أنّ كلام المؤرخين ، كابن خِلّكان ، يفيد أن البهاء زهيراً قضى زمن صِباه فى الصعيد ، ونشأ الودّ بينه وبين ابن مطروح فى ذلك العهد .

وربما يسبق إلى الظنّ أنّ البهاء زهيراً كان طفلا حين هاجرت أُسرته إلى وادى النيل ؛ لكنا نجد فى شعره قصيدتين يذكر فيهما عهده بالحجاز . أمّا أوّلاهما فهى :

أحِنّ إلى عهدِ المُحَصَّبِ من مِنًى ... وعيشٍ به كانت تَرِفّ ظِلالُه
ويا حَبّذا أمواهُه ونسيمُه ... ويا حبّذا حصباؤه ورِمالُه
ويا أسفى إذ شَطّ عنى مزارُه ... ويا حزنى إذ غاب عنى غزالُه
وكم لِىَ بين المروتين لُبانةٌ ... وبدرُ تمامٍ قد حَوَتْه حِجالُه
مُقيمٌ بقلبى حيث كنت حديثُه ... وبادٍ لعينى حيث سرت خيالُه
وأذكر أيامَ الحجاز وأنثنى ... كأنى صريع يعتريه خبالُه
ويا صاحِبى بالخَيْفِ كن لِىَ مُسْعِدًا
إذا آن من بين الحجيج ارتحالُه
وخذْ جانبَ الوادِى كذا عن يمينه
بحيث القنا يهتزّ منه طُوالُهُ

هناك ترى بيتاً لزينب مشرقاً إذا جئت لايخفى عليك جَلالُه
فعَرِّضْ بذكرِى حيثُ تسمع زينبٌ
وقل ليس يخلو ساعةً عنكِ بالُه
عساها إذا ما مَرَّ ذكرى بسمعها تقول : فلانٌ عندكم كيف حالُه

والقصيدة الثانية هى :

سقى الله أرضًا لستُ أنسى عهودَها
ويا طُولَ شوقى نحوَها وحنينى
منازلُ كانت لى بهنّ منازلٌ
وكان الصِّبا إلْفى بها وقرينى
تذكرتُ عهدًا بالمحصّب من مِنًى
وما دونه من أبْطَح وحَجُون
وأيامَنا بين المقام وزَمْزَمٍ
وإخوانَنا من وافدٍ وقطين
زمانٌ عَهِدتُ الوقت لى فيه واسعًا
كما شئتُ مِن جِدٍّ به ومُجُون
إذِ العيشُ نَضْرٌ فيه للعين مَنْظَرٌ
وإذ وجهُه غَضٌّ بغير غُضونِ

وليست ذكرياتِ طفل هـذه الذكريات التى يحِنّ البهـاء زهير إلى عهدها بين المقام وزمزم ، فلا بدّ أن يكون شاعرنا جاء إلى قوص فتًى مستكملا .

قال المؤرخون : وانتقل البهاء زهير من قوص بعد أن رُبِّى فيها وقرأ الأدب وسمع الحديثَ و بَرَع فى النظم والنثر والترسُّل ، ووصل إلى القاهرة فاتَّصل بخدمة السلطان الملك الصالح أبى الفتح نجم الدين أيوب فى حياة أبيه الكامل أيّام كان نائبًا عنه .

و يظهر أن البهـاء زهيرًا كان اتّصل قبل ذلك بخدمة الأمير مجد الدين إسماعيل بن اللَّمَطِىّ ؛ الذى هنّأه شاعرنا سنة ٦٠٧ لتولِّيه أعمال القوصية بقصـيدة هى أوّلُ مديحه — كما فى طبعة پامر — مطلعها :

تَمَلَّيتَهُ يا لابسَ العِزِّ مَلْبَسَا وهُنِّئتَه يا غارس الجُود مَغْرسَا

ومنهـا :

به أصبحت قوصٌ إذا هِىَ فاخرتْ
أعزَّ قبيـــلٍ فى الأنامِ وأنْفَسَا

ومنهـا :

لقد شَرّفت منه الصعيدَ ولايةٌ وأصبح واديه به قد تقَـدَّسا

ونجد للبهاء زهير قصائد فى مدح هذا الأمير يلتمس فى بعضها العونَ منه ، كقوله :

عِسى نظرةٌ من حسن رأيكَ صدفة
تسوق إلى جَدْبى بها الماءَ والكَلاَ
فهأنذا أشكو الزمانَ وصَرْفَه
وتأنَفُ لى عَلياكَ أنْ أتبدَّلاَ
مقيمٌ بأرضٍ لا مُقامَ بمثلِها
ولولاك ما أخّرتُ أن أتحوّلا
فجُدْ لى بحُسْنِ الرأىِ منك لعلّنى
أرى الدهرَ مما قد جرى متنصّلا
وهل كنتُ إلا السيف خالطه الصَّدَى
فكنتَ له يا ذا المواهب صَيْقَلاَ

ونجد فى ديوان البهاء زهير مدحًا للأمير وتهنئةً بشهر الصوم سنة ٦٠٩ فى قصيدة تفيض بالشكر والثناء ، منها :

مَوْلًى بدا من غير مسألةٍ بما جاز المَدَى كَرَمًا وعاد كما بَدَا
وأنالَ جُودًا لا السحابُ يُنيلُه يومًا و إن كان السحابَ الأجودا

وفى قصائد أخرى مدحٌ وثناء أيضاً ، كالقصيدة التى مطلعها :

لها خَفَرٌ يومَ اللقاء خفيرُها فما بالُها ضَنّتْ بما لا يَضِيرُها
وما نالنى من أنعُمِ الله نعمةٌ و إن عَظُمتْ إلّا وأنت سفيرُها
ومَنْ بَدَأَ النُّعْمَى وجاد تكرُّماً بأوّلها يُرْجَى لديه أخيرُها

ثم نجد بعد ذلك شعراً للبهاء زهير فى مدح الأمير مجد الدين اللَّمَطىّ ينمّ عن شكوى وعَتْب. وفى بعض القصائد تصريحٌ بأن البهاء زهيراً كان كاتباً للأمير ثم انفصل من خدمته. ففى سنة ٦١٩ أو سنة ٩١٢ (على نسختين مختلفتين من نسخ الديوان أرجِّح أولاها) قال البهاء زهير فى الأمير مجد الدين بن اسماعيل ابن اللمطىّ قصيدته التى أولها:

لنا عندكم وعدٌ فهلّا وَفَيتُمُ وقلتم لنا قولاً فهلّا فعلتُمُ
حَفِظنا لكم وُدًّا أضعتم عهودَهُ فشتّانَ فى الحالين نحن وأنتمُ

ومنها:

فياتاركى أنوى البعيدَ من النّوَى إلى أىّ قومٍ بعدكم أتيمّمُ
ألاَ إنّ إقليماً نَبَتْ بى دارُهُ و إن كثُر الإثراء فيه لَمُعْدِمُ
و إن زماناً ألجأتنى صروفُه فحاولتُ بُعْدِى عنكم لَمُذَمَّمُ
وأعلم أنى غالطٌ فى فراقكم وأنكمُ فى ذاك مثلى وأعظمُ
فلاطابَ لى عنكم مُقامٌ بموطنٍ ولو ضمّنى فيه المَقامُ وزمزمُ

ومثلُك لا يأسَى على فقدِ كاتبٍ ولـكنه يأسَى عليك و يَندَمُ
فمن ذا الذى تُدنيه منك وتصطفِى فيكتبُ ما توحِى إليه و يَكتُمُ
ومَنْ ذا الذى تُرضيك منه فطانةٌ تقول فيَدْرِى أو تُشير فيَفهَم
وما كلُّ أزهارِ الرياض أريجةٌ وما كلُّ أطيار الفَلا تترنَّم

ومن قصائده التى تنمّ عن العَتْب قصيدةٌ مطلعها :

أعلمتُ أنّ النسيمَ إذا سَرَى
نقلَ الحديثَ إلى الرَّقيب كما جَرَى

ومنها :

مولاىَ مجدَ الدِّين عَطْفاً إنّ لى لَمَحَبّةً فى مثلها لا يُمْتَرَى
يامَنْ عرَفتُ الناسَ حين عرفتُه وجَهلتهمْ لما نَبَا وتنكَّرَا
خُلُقٌ كماء المُزْن منك عَهدتُه ويَعِزُّ عندى أن يقال تَغَيَّرَا
مولاىَ لم أهجُرْ جَنابَك عن قِلًى حاشاىَ من هذا الحديث المُفترَى
وكفرتُ بالرَّحمن إن كنتُ امرأً يرضَى لما أوليتَه أن يَكْفُرَا

وقال البهاء زهير أيضاً يمدح هذا الأمير وقد انفصل من خدمته :

آياتُ مجدك ما لها تبديل وعلوُّ قدرك ما إليه سبيلُ
أسَفى على زمن لديك قطعتُه وكأنّنى المفرْقَدَينِ نزيلُ

و إذا انتسبتُ بخدمتي لك سابقاً فكأنها لِيَ مَعْشَرٌ وقَبِيلُ
هذا هو الأدب الذى أنشأتَه فاهتزّ منه روضُه المطلولُ

وربما دلّ كل ذلك على أنّ هجرة البهاء زهير من قُوص إلى القاهرة ؛ كانت بعد انفصاله من خدمة اللطىّ بعد سنة ٦١٩ ، ولعل هِجْرتَه للاتّصال بخدمة الملك الصالح كانت فيما حوالى سنة ٦٢٢ ؛ فإنا نجد له قصيدة فى هذا العهد مدح بها الصالح ، ستأتى الإشارة إليها ، وقد يكون اتّصل قبل الملك الصالح بأخيه الملك المسعود صلاح الدّين أبى المظفَّر يوسف بن الملك الكامل ، فإنّ فى ديوان شاعرنا قصيدةً مدَح بها هذا الملك لمَّا قَدِم من اليمن سنة ٦٢٠ كما فى طبعة بلمر ، وأول هذه القصيدة :

لكم أينما كنتم مكانٌ و إمكانُ ومُلكٌ له تَعنُو الملوك وسلطانُ

ومنها :

هو الملك المسعود رأياً ورايةً لهسَطوةٌ ذَلّتْ لها الإنسُ والجانُ
غَدَا ناهضاً بالمُلْك يحمل عِبْئَهُ وأقرانُه مِلكُ المكاتبِ ولدانُ
وتهتزّ أعوادُ المنابر باسمِه فهل ذكرتْ أيامَها وهى قُضْبانُ

ومنها :

أُعَلِّلُ نفسى بالمواعيدِ والمُنَى وقد مَرّ أزمانٌ لذاك وأزمانُ

أرى أنَّ عِزِّى من سواك مَذَلَّةٌ وإنّ حِبَائى من سواك لِحِرْمانُ
وليس غريباً مَنْ إليه اغتِرابُه له منه أهلٌ حيث كان وأوطانُ
وقد قرّب الله المسافةَ بيننا فها أنا يحوينى وإياه إيوانُ

وقال يمدحه بعد رجوعه من اليمن ، وأرسل بها من قوص إلى مصر سنة ٦٢١ :

أتتك ولم تبعُدْ على عاشقٍ مصرُ ووافاك مشتاقاً لك المدحُ والشِّعْرُ
إلى الملك المسعود ذى البأس والنَّدَى
فأسيافُه حُمْرٌ وساحاتُه خُضْرُ

وتوجه البهاء زهير فى خدمة الملك الصالح إلى البلاد الشرقيّة إلى أن ملَك الصالح مدينة دِمَشْق ، فانتقل إليها فى خدمته ، وأقام كذلك إلى أن جَرَت الكائنةُ المشهورة على الملك الصالح ، وخرجت عنه دمشق ، وخانه عسكره وهو بنَابُلُس وتفرقوا عنه ، وقبض عليه الملكُ الناصر داود صاحب الكَرَك واعتقله بقلعة الكرك . وأقام بهاء الدين زهير بنابلس وفيًّا لصاحبه ، ولم يتّصل بغيره ؛ ولم يزلْ على ذلك حتى خرج الملك الصالح وملك الديار المصريّة ، فعاد إليها فى خدمته ، وذلك فى أواخر ذى القعدة سنة ٦٣٧ هـ .

و يقول صاحب كتاب النجوم الزاهرة : إن البهاء زهيراً دام فى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيّوب إلى أن تُوُفِّى الملك الصالح .

وفى صبح الأعشى : أن الملك الصالح نجم الدين أيوب حين تولَّى ملكَ مصر وَلّى ديوان الإنشاء الصاحبَ بهاءَ الدين زُهَيراً ، ثم صَرَفه ووَلّى بعدَه الصاحبَ فخرَ الدين بن لُقمان الأسْعَرْدى ، فبقى إلى انقراض الدولة الأيّوبيّة .

وفى حسن المحاضرة : ثم وُلِّى ديوانَ الإنشاء الصاحبُ بهاء الدين زهيرٌ الشاعر المشهور ، ثم صُرِف ووُلِّى بعدَه الصاحبُ فخرُ الدين إبراهيم بن لقمان الأسعردىّ وأقام إلى انقراض الدولة الأيّوبية .

ولعلّ الصحيحَ أن بهاء الدين زهيراً بقى فى خدمة الملك الصالح إلى أن مات الملك الصالح فى شعبان سنة ٦٤٧ ؛ فقد ذكر المؤرِّخون أنّه فى سنة ٦٤٦ حدث للملك الصالح نجم الدين وَرَمٌ فى باطن رُكبته تكوّن منه ناسور عَسُر برؤه وانضاف إليه قَرْحة فى الصدر ، فلزم الفِراش ؛ إلّا أنّ علوّ هِمَّته اقتضى مسيرَه من ديار مصر الى الشام ، فسار فى مِحَفَّة ونزل بقلعة دِمَشْق ، ثم خبّره مُخبر أن

رُوَادِ فرَنْس (١) عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذِها ؛ فسار السلطان من دمشق وهو مريض فى مِحَفَّة ونزَل بأُشموم طَنَاح فى المحرّم سنة ٦٤٧ وأعدّ العُدة للكِفَاح عند دِمياط ، وفى أواخر صفر وردَتْ جيوش العدوّ ، و بعث ملكهم إلى السلطان كتابَ تهديد ووعيد ، هذا نصّه :

« أمّا بعدُ ، فإنه لم يخفَ عليك أنى أمين الأُمَّةِ العِيسويّة ، كما أنه لا يخفَى علىّ أنّك أمينُ الأمة المحمدية .

وغير خافٍ عليك أن عندنا أهلَ جزائر الأندَلُس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوقَ البقر ، ونقتّل الرجال ونرمّل النساء ، ونستأثر بالبنات والصِّبيان ونُخلى منهم الديارَ ؛ وأنا قد أبديتُ لك الكفايةَ ، و بذلتُ لك النصيحةَ إلى الغاية والنهاية ؛ فلو حلفتَ لى بكلِّ الأيمان ، وأدخلتَ علىّ القسُسَ والرُّهبان ، وحملتَ قُدَّامى الشمعَ طاعةً للصُّلْبان ؛ لكنتُ واصلاً اليك ، وقاتلَك فى أعزّ البقاع عليك ؛ فإما أن تكون البلادُ لى فيا هدية

---

(١) روادفرانس أو ريد فرانس : تعريب للفظ الفرنسى Roi de France بمعنى ملك فرنسا . ومؤرخو العرب يجعلون ذلك علماً على لويس التاسع الذى كان يقود الحرب الصليبية السابعة .

حصلت فى يدى ، و إمّا أن تكون البلادُ لك والغلبة علىّ ، فيدُك اليمنى ممتدّةٌ إلىّ ؛ وقد عرّفتك وعرفت ما قلتُ لك ، وحذّرْتك من عساكر حضرتْ فى طاعتى تملأ السهلَ والجبلَ ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء » .

فلما قُرئَ الكتابُ على السلطان وقد اشتدّ به المرض ، بَكى واُسترجع ؛ فكتب القاضى بهاء الدين زهير بن محمد الجواب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعدُ ، فإنه وصل كتابُكَ وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، ونحن أرباب السيوف ، وما قُتل منا قِرْنٌ إلا جَدّدناه ، ولا بَغَى علينا باغ إلا دَمّرناه . فلو رأت عينُك أيها المغرور حدّ سيوفنا وعِظَم حُرو بنا ، وفَتْحَنَا منكم الحصونَ والسواحل ، وتخريبَنا ديار الأواخر منكم والأوائل ؛ لكان لك أن تَعَضّ على أناملك بالنـدَم ، ولا بدّ أن تَزِلّ بك القدم ، فى يوم أوّلُه لنا وآخره عليك ؛ فهنالك تسىء الظنون « وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » . فإذا قرأتَ كتابى هذا فتكون منه على أوّلِ سورة النحل : « أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » ، وتكون أيضاً على آخر سورة ص : « وَلَتَعْلَمُنَّ

نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » ونعود إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين : « وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » . وقول الحكماء : « إِنَّ الْبَاغِى لَهُ مَصْرَعٌ » . وبَغْيُكَ يَصْرَعك ، وإلى البلاء يُسلمك . والسلام »

فالبهاء زهير كان فى خدمة الملك الصالح فى أواخر صفر من سنة ٦٤٧ ، وتوفى الملك الصالح فى أواسط شعبان من تلك السنة بعد أشهر قضاها فى مرض مستمر وفى جهاد لم يكن كلُّهُ مظفَّرًا

بعد هذا الفَرْض الذى أدَّى بنا الى ترجيح أنّ البهاء زهيراً ظَل مُتّصلاً بالملك الصالح إلى أن مات الملك الصالح ، وجدنا فى كتاب تاريخ العينى [1] (الموجود فى دار الكتب المصرية ، بالفتوغرافيا ج ١٩) ما يدلّ صريحاً على أن الملك الصالح صرف البهاء زهيراً من خدمته قبل موته بقليل ، فرأينا أن ننقل هذا النصّ عن نسخة دار الكتب المصرية :

« قلت : وذكر القطب اليونينى فى كتابه الذيل على مرآة الزمان ، قال فى ترجمة البهاء زهير كاتب الملك الصالح ، قال : فلما

(١) هو كتاب عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان لبدر الدين محمود العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ — ١٤٥١ م .

خرج الملك الصالح بالكرك من الاعتقال وسار إلى الديار المصرية كان بهاء الدين زهيرٌ المذكور فى صحبته ، فأقام عنده فى أعلى منزلةٍ وأجل مرتبةٍ ، هو المشار إليه فى كتّاب الدرج والمتقدّم عليهم ، وأكثرهم اختصاصاً بالملك الصالح واجتماعا به . وسيّره رسولاً فى سنة خمس وأربعين وستمائة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، يطلب منه إيفاد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل إليه ، فلم يجب إلى ذلك وأنكر الناصر هذه الرسالة غاية الإنكار وأعظمها واستصعبها ، وقال : كيف يَسَعنى أن أسيّر عمه إليه وهو خال أبى وكبير البيت الأيّوبىّ حتى يقتله وقد استجار بى ! وأشهد أنى لا أفعلها أبداً . ورجع البهاء زهير إلى الملك الصالح نجم الدين هذا بهذا الجواب ، فعظم عليه وسكت على مافى نفسه من الحنق .

وقبل موت الملك الصالح نجم الدين أيّوب بمُدَيْدَة يسيرة ، وهو نازل على المنصورة ؛ تغيّر على بهاء الدين زهير وأبعده لأمرٍ لم يطلع عليه أحدٌ . قال : حكى لى البهاء زهير أنَّ سبب تغيُّره عليه : أنه كتب عن الملك الصالح كتاباً إلى الملك الناصر داود صاحب الكرك ، وأدخل الكتاب إلى الملك الصالح ليعلِّم عليه

على العادة ؛ فلما وقف عليه الملك الصالح كتب بخطّه بين الأسطر: « أنت تعرف قلة عقل ابن عمى ، وأنّه يحبّ من يَصِله ويُعطيه من يده ، فاكتب له غير هذا الكتاب ما يعجبه » ، وسيّر الكتابَ إلى البهاء زهير ليغيِّره والبهاء زهير مشغول ، فأعطاه لفخر الدين إبراهيم بن لقمان ، فأمره بختمه فختمه ، وجهّزه إلى الناصر على يد نَجّاب ولم يتأمله ، فسافر به النجّاب لوقته . واستبطأ الملك الصالح عودَ الكتاب إليه ليعلّم عليه ، ثم سأل عنه بهاء الدين زهيراً بعد ذلك وقال له : ما وقفتَ على ما كتبتُه بخطّى بين الأسطر ؟ قال البهاء : ومَنْ يجسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى ابن عمه ! وأخبره أنه سيّر الكتاب مع النجّاب ؛ فقامت قيامةُ السلطان ، وسيّروا فى طلب النجّاب فلم يدركوه ، ووصل الكتاب إلى الملك الناصر بالكرك ، فعظُم عليه وتألم له .

ثم كتب جوابه إلى الملك الصالح وهو يعتب عليه فيه العتب المؤلم ويقول له فيه : « والله مابى ما يصدر منك فى حقى ، وإنما بى اطّلاع كتّابك على مثل هذا » ؛ فعزّ ذلك على الملك الصالح ، وغضِب على بهاء الدين زهير ، وبهاء الدين لكثرة مروءته ينسب ذلك إلى نفسه ، ولم ينسبه لكاتب الكِتاب وهو فخر الدين بن لقمان رحمه الله تعالى .

قال : وكان الملك الصالح كثير التخيّل والغضب والمؤاخذة على الذنب الصغير ، والمعاقبة على الوهم ، لا يُقيل عثرة ، ولا يقبل معذرة .

ويلاحظ أن ديوان البهاء زهير خِلْوٌ من رثاء الملك الصالح وخِلو من مدائحه إلّا قليلا .

كان بهاء الدين زهير كاتبَ ديوان الإنشاء فى عهد الملك الصالح أو كاتب السرّ : وديوان الإنشاء فى عهد الدولة الأيوبية كان عظيما معتنى به ، وكان لا يتولاّه إلا أجلّ كتّاب البلاغة ، ومتولّى رتبة كتابةِ السرِّ أعظم أهلِ الدولة .

ومن وظيفة كاتب السرّ قراءة الكتب الواردة على السلطان ، وكتابة أجوبتها ، والجلوس لقراءة القصص بدار العَدْل ، والتوقيع عليها ، وتصريف المراسيم صدوراً وورودا .

وكانت تجمع كتابةُ السرّ إلى الوزارة تارةً ، كما فعل ذلك صلاح الدين الأيُّوبىّ مع القاضى الفاضل ، وتفصل عنها أخرَى كما استمر عليه العمل بعد القاضى الفاضل .

ويقول بعض المؤلفين : إن بهاء الدين زهيراً كان وزيراً للملك الصالح نجم الدين أيّوب ، ويلقّبونه بالصاحب بهاء الدين زُهَير .

والصاحب لَقَبٌ للوزير إذا كان من أرباب الأقلام . على أن بهاء الدين زهيراً و إن لم يكن وزيراً فقد كانت رتبته — وهى رياسة ديوان الإنشاء — تُقاسم الوزارة جاهَها ومجدَها فى عهد الأيّوبيّين ، وربما كانت أوفَى منها مجداً وجاها . ومع هذه المكانةِ العالية فإن البهاء زهيراً مات فقيراً . وفى آخر عمره ، كما فى تاريخ أبى الفداء وتاريخ ابن الوردى ، انكشف حالُه حتى باع موجودَه وكُتُبَه وأقام فى بيته بالقاهرة حتى أدركه أجلُه . وأجمع المترجمون له على أنه كان ذا مروءةٍ ولُطفٍ ومكارم أخلاقٍ ، وقد كان متمكناً من صاحبه الملك الصالح ولا يتوسّط عنده إلّا بالخير ، ونَفَع خلْقاً كثيراً ، و بلغ من الرِّفعَة مالم يبلغه غيره .

والقارئ لشعر البهاء زهير يحسّ بما فى نفس الشاعر من رقة وحسن ذوق ، و بعد عن الشرّ والأذَى . ومما يدلّ على لُطف رُوحه أنه قلما يهجو بغير الوَصْف بالثِّقَل فيقول :

وثَقيلٍ كأنَّما مَلَكُ الموتِ قُرْبُه
ليس فى الناسِ كلّهمْ مَن تراه يحبّهُ
لوذكرتَ اسمه على الما ءِ لما ساغ شربُه

ويقول :

وجَليسٍ ليس فيـهِ قَطُّ مثل الناسِ حِسُّ
لِيَ منه أينمـا كنـ تُ على رَغْمِيَ حبسُ
ما له نفسٌ فتنهـا ه ، وهل للصخر نفسُ
إن يوماً فيـــه ألقا ه ليـــومٌ هو نَحْسُ

ويقول :

رُبَّ ثقيلٍ لِبُغْضِ طَلْعَتِه أخشاه حتى كأنَّه أجَلِى
وكلما قلتُ لا أشاهده ألقاه حتى كأنَّه عملى

ويقول :

يا ثقيـــلاً لِيَ مِنْ رؤيتِـــه همٌّ طويلُ
وبغيضاً هو فى الحا قِ شجًى ليس يزولُ
كلُّ فضلٍ فى الورَى أضعافه فيك فُضولُ
كيف لى منك خلاصٌ أين لى منـك سبيلُ
حار أمرى فيك حتّى لستُ أدرى ما أقولُ
أنت واللهِ ثقيـلٌ أنت والله ثقيـــلُ

ويقول :

والله لولا خيفـةُ التثقيل زرتُكَ فى الضُّحَى وفى الأصيل

لـكن أرى التخفيفَ عن خليلى ولستُ فى العِشرة بالثقيـل

و يقول :

وثقيلٍ ما بَرِحْنا نتمنَّى البعدَ عنه
غاب عنا ففَرِحنا جاءنا أثقلُ منه

والقارئ لديوانه يشعرُ بإباء وعزّة لم تُلِنْهما إلّا صولة الفقر فى عهد الشباب الأوّل لشاعرنا ، حينما كان يلتمس من الأمير اللمطىّ وغيرهِ عوناً ، فى لهجة تكاد تكون تذلُّلا لم يعرِفه بعـد ذلك شعرُ البهاء زهير .

و إذ قد وصلنا إلى شعر البهاء زهير فقد وصلنا إلى الجانب المهمّ من بحثنا ، فإنّ البهاء زُهَيراً الشاعر المصرىّ هو مدار حديثنا ، لا البهاء زهيراً من حيث هو صاحب ديوان الإنشاء فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيّوب .

ولقد كان الشعر العربىُّ قد جَمَدَ فى صُوَره وأساليبه وموضوعاته فى القرون الأخيرة من العصر العباسىّ ؛ بتحكُّمِ الأعاجم فى شؤون الدولة وقلّةِ تشجيعهم للشعراء ، وبتوَالِى الفِتَن على الممالك الإسلامية ، ثم انتعش الشعر فى وادى النِّيل مدّة الفاطميّين (٣٥٨ — ٥٧٦ هـ) الذين كان لهم باللغة العربية عناية عظيمة ، وفى عهـد الأيوبيين

(٥٧٦ — ٦٥٠ هـ) الذين راجت فى عهدهم القصير فنون العلم والأدب ، وازدهرت المدنية .

وفى هذا العهد نشأ البهاء زهير ، ووَسِعَ شعرُه كلَّ ما أنتجت مدنية ذلك العهد من ثمرات .

قال هُيَار فى كتابه الأدب العربى :

« إن شعر بهاء الدين زهير المهلَّبِي كاتب السرّ فى الدولة المصرية ، يجعلنا ندرك ما بلغه لسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف التى صقلتها مدنية خلفاء صلاح الدين الزاهية » .

وفى ترجمة ابن خِلِّكان للبهاء زهير ما يدلّ على أن شعرَ بهاء الدين زهير كان مجموعاً فى حياته متداولاً بأيدى الناس . قال ابن خلكان فى تلك الترجمة :

« وشعره كلّه لطيفٌ ، وهو كما يقال السهل الممتنع ، وأجازنى روايةَ ديوانه ، وهو كثير الوجود بأيدى الناس . . . الخ » .

وفى النسخ الخَطِّيّة الموجودة بدار الكتب المصرية من هذا الديوان ما يدلّ على أنَّ بعض تلامذته جمع شعره وزاد فيه على

ما فى ديوانه . فى آخر صحيفة من نسخة خطيّة (رقمها ٢٠٥١ أدب) ما نصه :

« قال جامع هذا الديوان ، وهو تلميذ الشيخ : هـذا آخر ما وجدت من شعر أبى الفضل زهير بن محمد بن على المهلّبى رحمه الله وأثابه الجنة بمَنِّه وكرمه » .

وفى هذه النسخة مقدّمة جاء فيها :

« كل ما كُتِب فى هذا الديوان وقلتُ قال رحمه الله ، فإنى كتبتُه بعـد موته رحمه الله بدِمَشْق المحروسة حماها الله تعالى فى جمادى الأولى من شهور سـنة سبع وستين وستمائة ولم أسمعه منه » اهـ .

وتوجد نسخة خطيّة أخرى أوّلُها :

« أمّا بعدَ حمد الله على مزيد آلائه ، وشكره على ما تفضّل به من جزيل جزائه » و بعد كلام : « أحببت أن أجمع ما وجدتُ من كلامه مستعيناً بالله » . كتبت هذه النسخة سنة ١٠٠٢ وليس فيها ما يدل على اسم جامعها إلا أن بآخرها : « من نعم الله على العبد الفقير محمد بن محمد اليمانىّ » . وورد فى طبعة بمبر ، التى سيأتى ذكرها ، ببعض الهوامش : « أن الذى جمع ديوان بهاء الدين

زهير بعد وفاته هو شرف الدين ، وأن ذلك مذكور فى نسخة حسنة موجودة بمكتبة اكسفورد ، عليها اعتمد الطابع فى التصحيح . وشرف الدين هـذا هو أبو العبّاس أحمد بن محمد بن أبى الوفاء ابن خطاب المعروف بابن الحلاوى المَوْصِلِىّ الأصلِ الدِّمَشْقى المولد والدار .

وقد ذكر ابن خِلِّكان أن شرف الدين المذكور لَقِى زهيراً فى بلاد الشام ومدحَه . وفى الديوان قصيدة أرسلها البهاء زهير إلى شَرَف الدِّين تعزية له فى أخيه سنة ٦٤١ .

وقد طبع ديوان البهاء زهير منذ عهد قديم بمصر وأعيد طبعه مراراً ، وطبع فى بيروت وغيرها . وأوّل طَبعَاته طبعة حَجَرية بمصر سنة ١٢٧٧ هـ وتليها طبعة حجرية أخرى سنة ١٢٧٨ هـ بمصر .

وطبع هذا الديوان بكمبردج سنة ١٨٧٦ م فى مجلدين : الأول منهما فيه الديوان مع تعليقات وهوامش ، وفى أوّله مقدمة تشتمل على ما للشعر من منزلة ساميةٍ عند العرب ، وعلى ترجمة صاحب الديوان . والثانى ترجمة للديوان بالإنجليزية منظومة شعراً وعليها شروح ، طبعه أدورد هنرى پالمر مدرّس اللغـة العربية بمدرسة

كمبردج ، الذى قتله بعض العرب ببادية طور سينا سنة ١٨٨٢ م أثناء الحوادث العرابية .

ويقول صاحب « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » : إن ديوان البهاء زهير طبع أيضاً فى باريس سنة ١٨٨٣ م مع القراءات المتنوعة للمتن الأصلى العربى[1] .

* * *

كانت للشعر نهضة ، كما قلنا ، فى عهد الفاطميين فالأيوبيين ، والبهاء زهير من أئمة النهضة الشعريّة فى عصر بنى أيّوب .

وعبقرية البهاء زهير فى هذه النهضة تتجلّى من نَوَاح ثلاث :

(١) ناحية الأسلوب .

(٢) « الأوزان .

(٣) « الموضوعات التى يتناولها الشعر .

الناحية الأولى ناحية الأُسلوب : كان عصر البهاء زهير من جهة اللّغة شبيها بعصرنا هـذا ، ففيه لهجة يستخدمها الناس فى

---

(١) نبهنى الأستاذ كارلو نالينو إلى مافى هذا القول من الخطأ فان الذى طبع فى باريس سنة ١٨٨٣ ليس إلا رسالة تبين ما يوجد من خلاف بين طبعة پالمر ونسخه خطية قديمة فى مكتبة الجمعية الأسيوية بباريس .

معايشهم ومعاملاتهم ، ويعبّرون بها عن أفكارهم وعواطفهم فى حياتهم اليوميّة ؛ ولهم لهجةٌ أخرى لايلجأُون إليها إلا إذا عالجوا النظم أوَ حاولوا الإنشاء . كانت لغةُ الحياة فى شَتّى مظاهرها لغةً ملحونةً ، ولكنهاتُساير الحياةَ فى حركتها وانتقالها ، وتصل بسهولة إلى أفهام العامّة والخاصّة . وكانت لغةُ الشعر والكتابة لغةً مستقيمةَ الإعراب تتسامَى عن التبذُّل للعامة ، وتحاول أن تتّصل بأساليب الشعر القديم والنثر القديم ، باعتبار تلك الأساليب قوالبَ ينبغى أن يُصَبَّ فيها شعرُ ما يتلو من العصور ونثره . ووُجد من الشعراء والكتّاب مَنْ كان همُّه أن يزيد لغة القريض والإنشاء تعالياً على لغة العامّة : باختيار العبارات الجَزْلة القليلة الاستعمال ، البعيدة عن الابتذال ، وبالتأنُّق فى تزيين الأساليب الشعريّة والنثريّة بالمحسِّنات البديعية ، التى قد يكون لبعضها تقديرٌ من الجهة الصناعية ؛ لكنها بعيدة عن جمال البيان والوضوح .

أمّا البهاء زهير فجاء بمذهب جديد ، فجعل لغة الحياة الجارية فى بَسَاطتها ومُرونتها لغةً للشعر بعد تطبيقها على قواعد الإعراب وتقويم ما فيها من اللَّحن جهد المستطاع ؛ وجَرَى على ذلك فيما كانت تجيش به نفسه وتفيض به عواطفه من فنون الشعر .

وشعر البهاء زهير كما هو مرآةٌ صادقة لعَصْره ؛ بما فيه من فيض الطبع والبعد عن التكلُّف ، هو أيضاً مرآةٌ لعصره من حيث اللغة والتعبير . والروحُ المصريُّ يتجلَّى فى هذا الشاعر القوصيّ الصعيديّ بأكثر مما يتجلَّى فى أيّ شاعر مصريّ عرفناه فى القديم والحديث .

وللبهاء زهير فى بعض قصائده تشوّقٌ إلى الصعيد :

أحِنّ إليكم كلَّ يومٍ وليلةٍ وأهذِى بكم فى يَقْظتى ومَنَامى
فلا تُنكروا طِيب النسيم إذا سَرَى
إليكم فذاك الطيبُ فيه سلامِى
فهل عائدٌ منكم رسولى بفَرحةٍ كفرحةِ حُبْلَى بُشِّرت بغُلامِ
ويرتاح قلبى للصعيد وأهله وعيشٍ مضى لى عندكم ومُقامِ
وأهوَى ورودَ النِّيل من أجل أنَّه يمرّ على قومٍ لدىّ كرامِ

ويطول بنا القول لو أردنا أن نستقصى فى البهاء زهير نفحات مصريّته فى التعبير والذوق ، ودلائل دِيمقراطيته فى اللغة وإن كان أرِسْتُقْرَاطىّ المَنَازع والأخلاق .

على أننا نذكر لذلك نماذج نُحيل على ديوانه لاستيفائها . ولا يفوتنا أن نشير إلى أن من نفحات المصرية فى أسلوب البهاء

زهير ؛ كثرة الحَلِف فى شعره ، فقلما تخلو قصيدة له من يمين ، حتى ليقول :

ووالله ما فارقتكم من ملالة ووالله ما أحتاج أنِّىَ أحلِفُ

* * *

لعلكُم قد صَدّكم عن زيارتى مخافةُ أمواه لدمعى وأنواء
فلو صدَق الحبُّ الذى تدَّعونَه وأخلصتمُ فيه مَشَيتم على الماء
و إن يك أنفاسى خَشِيتُم لهيبَها وهالتكُم نيرانُ وجدٍ بأحشائى
فكونوا رفاعيين فى الحبّ مرةً وخوضوا لظى نارلشوقِىَ حَرّاء
حُرِمتُ رضاكم إن رَضِيت بغيركم
أو اعتضت عنكم فى الجِنان بحَوْراء

* * *

قلبى لديك فكيف أذ تَ على البِعَاد وكيفَ قلبى ؟

* * *

فيا صاحبى مالى أراك مفكراً وحَتّامَ ، قُلْ لى ، لا تزال كئيبا

* * *

قال لى العاذل تسلو قلت للعاذل تتعبْ
أنا بالعاذل ألهو أنا بالعاذل ألعب

ليس فى العُشّاق إلّا مَنْ يُغَنِّى لى وأشرب

* * *

أُحدِّثه إذا غفـــل الرقيبُ وأسألُه الجوابَ فلا يُجيبُ
وأطمَعُ حين أعطفه عساه يَلين لأنه غُصْنٌ رطيبُ
و يَخفقُ حين يُبصره فؤادى ولا عَجَبٌ إذا رَقَص الطَّروبُ
فيا مولاى قل لى أىُّ ذنب جنيتُ لعلّنى منـــه أتوبُ
حبيبٌ أنت قل لى أم عدوٌّ ففعْلك ليس يفعـله حبيبُ

* * *

أنا فيما أنا فيـــه وعـــذولى يتعتَّبْ
أنا لا أُصْغِى لمـا قا لَ فيَرْضَى أوفيغضبْ
يا حبيبى ونديمى واللَّيـالى تَتَقَلَّبْ
هاتِ فيما نحن فيـه ودَعِ العاذلَ يَتعَبْ

* * *

أرَى قومًا بُلِيتُ بهمْ نصيبى منهـمُ نَصَبِى
فمنهم مَن يُنافِقُـنى فيكذبُ لى و يحلف بِى
و يُلزمنى بتصـــديق الذى قد قال من كَذِبِ
وذو عُجْبٍ إذا حَدَّثـ تُ عنه جئتُ بالعَجَبِ

وما يدرى بحمد الله ما شعبانُ من رجب
وما أبصرتُ أحمقَ منـ ـه فى عُجْمٍ ولا عَرَبِ
وأحمقُ قد شَقِيتُ به بلا عقلٍ ولا أدَبِ
فلا ينفكّ يَتبَعُنِى وإن أمعنتُ فى الهَرَب
كأنّى قد قتَلْتُ له قتيلًا فهو فى طلبى
لأمرٍ مَا صَحِبتُهُمُ فلا تسألْ عن السَّبب
يحسِّن عقلنا أنّا نصيدُ البازَ بالخَرَبِ (١)
وكنا قد ظننّا الصُّفْـ ـرَ (٢) عندالنقد كالذَّهب
فلم نظفَرْ بحاجتنا وأشفينا على العَطَب
رَجَعنا مثلَ ما رُحنا ولم نَرْبَحْ سوى التعبِ

* * *

وزائرةٍ زارت وقد هجم الدُّجى وكنت لميعادٍ لها مترقِّبَا
فما راعنى إلّا رَخيمُ كلامها تقول حبيبى قلتُ أهلًا ومَرْحَبا
فقبّلت أقدامًا لغيرىَ ما مشت ووجهًا مَصُونًا عن سواىَ محجّبَا

(١) الخرب (بفتحتين) : ذكر الحبارى ، والحبارى طائر معروف ، وهو على شكل الأوزة برأسه ، وبطنه غبرة ولون ظهره وجناحيه كلون السمانى غالبا . وهو من الطيور الضعيفة ، ومن أمثالهم : « ما رأينا صقراً يرصد خرب » يضرب للشريف يحاول أن يقهره الوضيع .

(٢) الصفر : نوع من النحاس .

ولم تَرَ عَينى ليلةً مثلَ ليلتِى فياسَهرَى فيها لقد كنتَ طيّبا
سأشكر كلَّ الشكر إحسانَ محسنٍ
تَحَيّـــلَ حتى زارنى وتسببَا
حبيبٌ لأجلى قد تَعَنّى وزارنى وما قيمتى حتى مشى وتعذَّبَا

* * *

كم ذا التصاغرُ والتصابى غالطتِ نفسَكِ فى الحسابِ
لم يبق فيكِ بقيـــةٌ إلا التعلّل بالخضابِ
لا أقتضـــيكِ مودّةً رُفِعَ الخراجُ عن الخَرَابِ
ما العيش إلّا فى الشبا بِ وفى مُعاشرة الشّبابِ
ولقد رأيتُكِ فى النقابِ وذاك عُنوان الـكتابِ
وسألتُ عمّـا تحتَـه قالوا عِظامٌ فى جرابِ
وسمعتُ عَنْكِ قضـيّةً سارت بها أيدِى الرِّ كابِ
هَـذا وكم من وَقْفةٍ لكِ فى الأزقَّةِ للعِتابِ
واليـــومَ قالوا حُرّةٌ سِتّ الحرائر فى الحجابِ
وأردتُ أنطِقُ بالجوا بِ فلم يكن وقت الجوابِ
يا هـذه ذهَبَ الصِّبا فإلى متى هذا التَّصَابى
ما هـذه شِيَم الحرا ئر لا ولا شِيَمُ القِحابِ

* * *

لا تَطرِحْ خامِلَ الرجالِ فقدْ تحتاجُ يومًا إلى كِفَايَتِهِ
فاليَكُّ فى النَّردِ وهو محتقَرٌ خيرٌ من الشِّيْشِ عند حاجتِهِ(١)

* * *

يُعاهدنى لا خاننِى ثم يَنْكثُ وأحلفُ لا كلّمتُه ثم أحنَثُ
وذلك دَأبى لا يزالُ ودأبُه فيا أيّها الناس اسمَعوا وتحدّثوا
أقول له صِلْنى، يقول نعم غداً ويكسِر جَفْناً هازئاً بى ويَعْبَثُ
وما ضرَّ بعضَ الناس لو كان زارنى
وكنّا خَلَوْنا ساعةً نَتَحَدَّثُ
أمولاى إنّى فى هواك معذَّب وحَتّامَ أبقى فى العذاب وأمكثُ
فخذمهجةروحى تُرِحْنى ولم أكن أموت مراراً فى النهارِ وأُبْعَثُ

* * *

صديقٌ لى سأذكُره بخيرٍ وأعرِفُ كنهَ باطنِه الخبيثا
وحاشا السامعين يُقال عنه وبالله اكتموا هذا الحديثا

* * *

مولاىَ من سكر الدلال عَبِثْ تَ والسكرانُ عابثْ
ونكَثتَ عهداً فى الهوَى ماخِلتُ أنّك فيه ناكثْ

---

(١) والبيت فى طبعة پلمر هكذا :
فاللين فى البرد وهو محتقر خير من اليبس عند حاجته

لك لا أشُكُّ قضيّةٌ أنا سائلٌ عنها وباحثْ
عَتَبَ الحبيبُ فلم أجِدْ سبباً لذاك العَتْبِ حادثْ
واليوم لى يومان لم أره وهذا اليوم ثالثْ
ما كنتُ أحسب أنه ممن تُغَيّره الحوادثْ
وَيَلَذُّ لى العَتْبُ الذى صِدْقُ الوِدادِ عليه باعثْ

* * *

وعائدٍ هو سقمٌ لكلّ جسمٍ صحيحِ
لا بالإشارةِ يدرِى ولا الكلام الصريحِ
وليس يخرج حتى تكاد تخرُج رُوحى

* * *

وغادةٍ بوَصلها مُسامِحَهْ تحفَظُ ودِّى مثلَ حفظِ الفاتحهْ
وفَتْ بوعدٍ ثم قامت رائحَه فيا صِحابى فى الخطوب الفادحه
هَبْكُمْ رَحِمْتم لِىَ نفساً طافحه هَبْكُمْ أعنْتم بدموعٍ سافحه
ما تفعلُ الثَّكْلَى بنَوْح النائحه

* * *

أتتكَ و إن كانت كثيراً تأخرت فإنَّكَ تعفو عن كثير وتصفح

* * *

أيها الغافل الذى ليس تُجدى كثرةُ اللوم فيه والتوبيخِ

إنَّهـا غفلة لك الويل منهـا مارواها الرواةُ فى التاريخ
وكما قيـل هَبْ بأنَّكَ أعمَى كيف تخفَى روائح البِطّيخ

* * *

وحيثما كنتَ كنتَ مولًى وحيثما كنتُ كنتُ عبدَكْ

* * *

ويا ليت عندى كلَّ يومٍ رسولَكم
فأُسْكنَه عينى وأُفْرِشَـــه خَدِّى
وإنِّى لأرعاكم على كل حالةٍ وحَقِّكُم أنتم أعَزُّ الورى عندى
عليكم سلامُ الله والبعدُ بيننا وبالرغمِ مِنّى أن أُسَلِّمَ من بُعدِ

* * *

بحق الله مَتِّعْـ ـنِى من وجهك بالبُعد
فما أشوقنى منكَ إلى الهِجْران والصَدِّ
فما تصلُح للهزلِ ولا تصلُح للجِدّ
وماذا فيك من ثِقْلٍ وماذا فيك من بَرْد
فلا صُبِّحتَ بالخيرِ ولا مُسِّيتَ بالسَّعدِ

* * *

وليلةٍ ما مثلُها قطُّ عُهِدْ مثل حَشَا العاشق باتت تَتَّقِدْ

طلبتُ فيها مُؤنِسًا فلم أجِدْ بِتُّ أُقاسِيها وحيداً منفرِدْ
طالت فأمَّا صُبحُها فقد فُقِدْ فتحبَلُ المرأةُ فيها وتلِدْ

* * *

ووعدتنى يومَ الخميـ ـس فلا الخميس ولا الأحَدْ
وإذا اقتضيتُك لم تزد عن قول إى واللهِ غَدْ
فأعُـــدُّ أياماً تَمُـ ـرّ وقد ضَجِرتُ من العَـدَدْ
وتقول أوصيت الخطيـ ـبَ فهل نَفَوْهُ من البـلدْ
وإذا اتّـكلتَ على الخطيـ ـبِ فما اتّـكلتَ على أحدْ

* * *

تَوَقَّ الأذَى من كل نَذْلٍ وساقطٍ فكم قد تأذَّى بالأراذِل سيِّدُ
ألم تر أنَّ الليثَ تُؤْذِيه بَقَّـةٌ ويأخذ من حَدِّ المُهَنَّـدِ مِبردُ

* * *

هـــذه أوّل حاجاتى إليكا وبها أعرِف مقدارى لديكا

* * *

سـيِّدِى قلبِىَ عنـدَكْ سيِّدِى أَوْحَشْتَ عبدَكْ
سـيِّدى قُلْ لى وحدِّثْـ ـنى متى تُنجز وعدَكْ
أترَى تذكرُ عهـدِى مثـلَ ما أذكر عهـدَكْ

أم تُرَى تحفَظُ ودِّى مثلَ ما أحفظ ودَّك
قُمْ بنا إن شئتَ عندى أو أكنْ إن شئتَ عندَك
أنا فى دارِىَ وحدِى فتفضَّلْ أنت وحدَكْ

* * *

أين مولاىَ يرانى ودموعى فوق خَدِّى

* * *

وجليسٍ حديثُه للمَسرّاتِ طاردُ
مثلُ ليل الشتاءِ فهْـ وَ ثقيلٌ وباردُ

* * *

فلاتُرخِصوا ودًّا عليكم عَرضتُه فيارُبَّ مَعْروضٍ وليس بكاسدِ
وحقِّكُم عندى له ألفُ طالبٍ وألفُ زُبُونٍ يشتريه بزائدِ
إذا كان هذا فى الأقارب فعلَكم فماذا الذى أبقيتُمُ للأباعدِ

* * *

وَدِدتُ بأنى مارأيتُ وجوهَكم وأنّ طريقًا جئتُكم منه مسدودُ

* * *

حَدّثُوا عن طولِ ليلٍ بِتُّه هل رأيتم ، هل سمعتم ، هل عُهِدْ
لا رعاه الله ما أطوَلَه تحبَلُ المرأة فيهِ وتَلِدْ

* * *

لنا صديقٌ سيئٌ فعلُهُ ... ليس له فى الناس من حامدِ
لو كان فى الدنيا له قيمةٌ ... بِعْناه بالناقص والزائد

* * *

يا غادرين ألم يكن ... بينى وبينكم عهودُ
ظهرتْ وبانتْ لى قَضِيَّـ ... ـتُكم فما هذا الجحودُ ؟
وحلفتمُ ما خنتمُ ... وعلى خِيانتكم شهودُ
يا مَنْ تبدّل فى الهوى ... يَهْنِيك صاحبُك الجديدُ
إن كان أعجبك الصدُو ... د كذاك أعجبنى الصدودُ
واُعلَمْ بأنّى لا أُريـ ... ـدُ إذا رأيتُك لا تُريدُ
وأنا القريبُ فإن تغيّـ ... ـرَ صاحبى فأنا البعيدُ
يومٌ أُخَلّص فيه قلـ ... ـبى منك ذاك اليومُ عيدُ
وعساك تطلب أن أعـ ... ـودَ إلى هواك فما أعودُ
ولقد علمتَ بأننى ... لِى فى الهوى خُلُقٌ شديدُ

* * *

مولاىَ كنْ لِىَ وحدِى ... فإننى لك وحدَكْ
وكن بقلبك عندِى ... فإنّ قلبىَ عندكْ
لى فيك قصدٌ جميلٌ ... لا خيّبَ اللهُ قصدَكْ

حاشاك تُؤثر بُعْدِى ولست أُؤثر بُعدَك
إن تنسَ عهدى فإنى واللهِ لم أنسَ عهدك
أضعتَ ودَّ محبٍّ مازال يحفَظ ودّك
مالى عليك اُعتراضٌ أَدِّبْ كما شئتَ عبدك
مولاى إن غبتَ عنّى وا سوءَ حالِىَ بعدَكْ

* * *

طلبتَ الجميعَ ففات الجميعُ فمن سوء رأيك لاذا ولاذ

* * *

بالله قل لِى خَبرَكْ فِلى ثلاثٌ لم أرَكْ
يا أسبقَ الناسِ إلى مَودّتى ما أخَّرَكْ
وناظرى إلى الطريـ ق لم يزَلْ منتظرَكْ
بين جفونى والكَرَى مذغِبْتَ عنى مُعْتَرَكْ
كيف تغيَّرتَ ومَنْ هذا الذى قد غيَّرَكْ
وكيف يا معذِّبى قطعتَ عنى خبرَكْ
ومن غرامى كلما لامَكَ قلبى عَذَرَكْ
واللهِ ما خنتُ الهوى لكَ الضَّمانُ والدَّرَكْ
وحقِّ عينيك لقد نَصَبتَ عينيكَ شَرَكْ

وحاسدٍ قال فما . أبقى لنا ولا تَرَكْ
ما زال يسعى جهدَه يا ظَبْيُ حتَّى نَفَّرَكْ

* * *

قد سرّنى هذا الذى بى من ضَنًى إن كان سَرّكْ
إن كان ذلك عن رِضاَ كَ وقد علمتَ به فأمرَكْ
أو كان قصدُكَ فى الهوى قتلى يُطيل الله عمرَكْ
مولاىَ ما أحلاكَ فى قتل المحبِّ وما أمرَّكْ
تِهْ كيف شئتَ من الجما ل فلستُ أجهَلُ فيه قَدْرَكْ

* * *

أصبحتُ لاشغلَ ولا مَرْعَهْ مُذَبْذَباً فى صَفْقَةٍ خاسرهْ
وجملةُ الأمرِ وتفصيلُهُ أصبحت لا دنيا ولا آخرهْ

* * *

و يأنَفُ الغدرَ قلبى وهو محترقٌ النارُ واللهِ فى هذا ولا العارُ
وليلةُ الهجرِ إن طالت و إن قَصُرتْ
فمؤنِسى أملٌ فيها وتَذْكارُ

وله فى رثاء

يا واحداً ما كان لى غيرهُ بعدَكَ واقِلَّةَ أنصارى

يامنتهى سُؤلى و يامُشْتَكَى حُزنِى و يا حافظَ أسرارى
الدارُ من بعدك قد أصبحتْ فى وحشةٍ يا مؤنسَ الدار
إن كنتَ قدأصبحتَ فى جَنَّةٍ إنِّىَ من بعدِك فى نارِ

وقال يعاتب اُمرأة :

يا هـــذه لا تَغلَطِى واللهِ مالى فيك خاطِرْ
خدعوكِ بالقول المُحا لِ فصَحّ أنَّكِ أمُّ عامِرْ
أظننتِ لى قلبــاً على هذى الحماقةِ منك صابر
وسمِعتُ عنكِ قضيّةً قد سُطِّرتْ فيها دفاتر
نُقِلتْ إلىّ جميعُهـا حتى كأنّى كنتُ حاضر
فمتى أردتِ شرحتُها لك بالدلائل والأمائر
إن كنتِ أنت نسيتِها فَلَكَم لها فى الناسِ ذاكر
وسألتُ عنك فلم أجِد لك فى جميع الناس شاكر
وزعمتِ أنكِ حرّةٌ ما هـذه شِيَمُ الحرائر
فإذا كَذَبتِ فلا يكن كذباً لكل الناسِ ظاهر

* * *

فإن متُّ فى ذا الحبِّ لستُ بأوّلٍ فَقَبْلِىَ مات العاشقون كثيرُ

* * *

أنا مالى على الجَفَا لا ولا البعدِ مُصطَبَرْ
أنكرتْ مُقْلَتى الكَرَى حين عَرّفتها السَّهَر
فعسى منك نظرةٌ ربما أقنعَ النظر
أيها المُعْرِضُ الذى لا رسولٌ ولا خبرْ
وجَرَى منه ما جَرَى ليته جاء واُعتذر
كلُّ ذنبٍ كرامةً لمُحَيَّاكَ مُغتفَر

* * *

قَصِّروا عمر ذا الجَفَا طوّل الله عمرَكُمْ
شَرِّفونى بزورةٍ شرَّف الله قدرَكم
لو وصلتم مُحبَّكم مَا الذِى كان ضَرَّكم
مِتُّ فى الحبِّ صَبْوَةً أعظم الله أجرَكم

* * *

إنِّى أدِلُّ لأننى ضيفٌ ومملوكٌ وجارُ

* * *

ويا قمرَ الأُفق عُدْ راجعاً فقد بات فى الرَّوض عندى قمرْ
ويا ليلتى هكذا هكذا وبالله بالله قِفْ يا سَحَرْ
خَلَوْنَا وما بيننا ثالثٌ فأصبح عند النسيم الخبر

* * *

أثرتَ الهوَى ثم تبكى أسًى فمنك الرياحُ ومنك المَطَرْ

* * *

لى حبيبٌ لا يُسَمَّى وحديثٌ لا يُفَسَّرْ
آهِ لو أمكننى القو لُ لعلِّى كنتُ أُعذَرْ
لستُ أرضَى لحبيبى أنّه للناس يُذْكَرْ
وهو معروفٌ ولكن هو معروفٌ مُنَكَّرْ
هُوَ ظبْيٌ فإذا ما سُمته الوصلَ تَنَمَّرْ
فترى دمعِىَ يجرى ولسانى يَتَعَثَّرْ
سيِّدِى لا تُطِعِ الـ ـواشِى وإن قال فأكثَرْ
فحديثى غيرُ ما قد ظنَّه الواشى وقَدَّرْ
إن ذنب الغَدْرِ فى الحبِّ لَذَنْبٌ لا يُكَفَّرْ
طالت الشكوى وملّ السمعُ مما يتكرّرْ
وانقضى عمرى وحالى هو حالى ما تَغَيَّرْ

* * *

أرِحْنى منكَ حتى لا أرى مَنْظَرَكَ الْوَعْرا
فقد صرتُ أرى بُعْدَ كَ عنِّى الراحةَ الكبرى
فما تنفعُ فى الدنيا ولا تشفَعُ فى الأُخرى

* * *

لَيس يَشْفى ما بقلبى منكمُ غيرُ حضورى
إن خَطْبَ البعدِ عنكم ليس بالخطب اليسيرِ

* * *

وليس اعتمادىَ إلّا عليك فلا تُخْلنى من جميلِ النظرْ

* * *

يا روضةَ الحسنِ صِلِي فما عليكِ ضَيْرُ
فهل رأيتِ روضةً ليس بها زُهَيْرُ ؟

* * *

وصاحبٍ جعلتُه أميرى أسكنته فى داخل الضميرِ
أودعته الخفىَّ من أُمورى فكان مثلَ النار فى البَخُورِ
صَحِبتُه ولم يكن نظيرى قَدَّمتُه وهو يرى تأخيرى

* * *

ويومُ سرورِىَ يومَ أراك لأنى بوجهك أستبشرُ

* * *

وترانى باكيًا مكتئباً وتراه ضاحكاً مستبشرا
بعضُ ما ألقاه منه أنه لا يزال الدهرَ بى مُستهترا

وافتضاحى فيــه ما أطيبَــه كان ما كان و يدرى مَنْ دَرَى

* * *

أوحشتَنى والله يا مالكى قطعتُ يومى كلَّه لم أرَكْ

* * *

وأحمقٍ ذى لِحْيةٍ كبيرةٍ مُنْتَشِرَهْ
طلبتُ فيها وجهَــه بشــدّة فلم أرَهْ
تَبًّا لها من لحيَــةٍ كبيرةٍ مُحتقَرَهْ
مُضحكة ما كان قطُّ مثلها لِمَسْــخَرَهْ
فلو مضى السوقَ بها وزَفّها بالمِــزْمَرَهْ
لحصَّلت له مُغَــلَّ ضَــيْعةٍ مُوَفّــرَهْ

* * *

لكم عذركم ، أنتم سمعتم فقلتُم ومُحتَمَلٌ ما قد سمعتم وجائزُ

* * *

قالوا فلان قد غــدا تائبا واليومَ قد صلّى مع الناسِ
قلتُ متى ذاك وأنَّى له وكيف ينسَى لذّةَ الكاسِ
أمسِ بهذى العين أبصرتُه سكرانَ بين الورد والآسِ
ورحتُ عن توبته سائلا وجــدتُها توبة إفلاسِ

* * *

يا مانعاً حُلْوَ الرِّضى وباذلاً مُرَّ السَّخط
حاشاك أن ترضَى بأن أموتَ فى الحبّ غلطْ

* * *

يا كثيرَ الجميلِ مثلك مولى يشترينى جميلهُ ويبيعُ

* * *

ملأتم فؤادى فى الهوى فَهْوَ مُتْرَعٌ
ولا كان قلبٌ فى الهوى غير مترعِ
ولا عاذلى يَنْفَكّ عنِّىَ إصبَعاً
وقد وقعت فى رُزَّة الحب إصبعى

* * *

أرى قصدَه أن يقطع الوصلَ بيننا
وقد سلّ سيفَ اللّحظ واللحظُ قاطعُ
فإن تَتفَضَّلْ يا رسولى فقلْ له
محبُّك فى ضيقٍ وحلمُك واسعُ
فوالله ما ابتلّتْ لقلبىَ غُلّةٌ
ولا نَشَفتْ منّى عليه المدامعُ

فلا تُنكروا منّى خضوعًا علمتمُ
فما أنا فى شىء سوى الحبِّ خاضعُ

* * *

فوق خَدَّيْه لنا وردةٌ فوق الصِّفهْ
ولَثِمتُ إكرامًا له وجهَ الرسولوكفَّه

* * *

دخلتُ مصرَ غنيًّا وليس حالى بخافى
عشرون حِمْل حريرٍ ومثل ذاك نصاف
وجملةٌ من لآلٍ وجوهرٍ شَفّافِ
ولى مماليكُ تُرْكٌ من المِلاحِ النِّظافِ
فرحتُ أبسُط كَفِّى وبالجزيلِ أُكافى
وصرتُ أجمَعُ شملى بسالفٍ وسُلافِ
ولا أزالُ أُواخِى ولا أزال أُصَافِى
فصار لى حُرَفاءُ كانوا تمَامَ حِرَافى
وكل يومٍ خِوانٌ من الجِدَا والخِرَافِ
فبعتُ كُلَّ ثَمين معى من الأصنافِ
واُستهلك البيعُ حتّى طَرّاحتى ولِحافى

صَرَفْتُ ذاكَ جميعاً بمصرَ قبلَ انصرافى
وَصِرْتُ فيها فقيراً من ثروتى وعَفافِى
وذا خروجِىَ منها جَوْعانَ عُرْيانَ حافِى

* * *

تسائلُ عن وَجدِى بها وصَبابتى فقلت أمَا يَكْفيكِ مَوتِىَ فيكِ
وكانت تُسَمِّينى أخاها تَعَلُّلاً فقلتُ لقد أفسدتِ عقلَ أخيكِ

* * *

أرسلتُه فى حاجةٍ كالماء هَيِّنةِ المَساغِ
فحُرِمْتُ حسنَ قضائها إذ لم يكن حسنَ البَلاغِ
كالخمر يُرسَل للفؤا دِ بها وتَصعَدُ للدِّماغِ

* * *

كم أُلاقِى منكَ ما لا أشتهِى لاقيتَ حَيْنَكْ!
وعيونُ الناسِ تستحـ ـيى وما أوقَحَ عينَكْ
لعنَ اللهُ طريقاً جَمَعَتْ بينى وبينَكْ

* * *

يا هاجرى يحِقّ لَكْ وَجَدْتَ غيرى شَغَلَكْ
ويا لسانَ الدَّمعِ فى شرحِ الهوَى ما أطوَلَكْ

يأيها السائلُ عنّى لا تَسَلْ عمن هَلَكْ
بِتُّ بليلٍ بَاتَهُ كلُّ عدوٍّ لى ولكْ

* * *

أصبَحَ عندى سَمَكَهْ وكِسرةٌ مُدَرْمَكَهْ
أردتُ أن أُحْضِرَها على سبيلِ البَرَكَهْ
تجعلها لِمَا يجى ء بعدَها مُحرِّكَهْ

* * *

إذا كنتَ مشغولاً وذا يوم جُمعةٍ فى أيِّمَا يومٍ تكون بلا شغل

* * *

فَعلتُ ما يَلزَمُنى فليتَ غيرى لو فَعَلْ

* * *

وكنتُ زماناً لا أقولُ فعلتُ ولكنّنى من بَعدِها سأقولُ
لَعَمْرِى لقد عَلَّمتمونى عليكمُ وإنى إذا عُلِّمْتُ فىّ قَبُولُ
سَيَنْدَمُ بَعْدِى من يُريد قطيعتى ويذكر قولى والزمانُ طويلُ

* * *

وما عيشُ الغريبِ بلا عِيالٍ كَعَيْشِ القاطنين ذَوِى العيالِ

* * *

فإذا جِئْتَ وغابَ النَّاسُ طُرًّا لا يَهُمُّهْ

* * *

ولولا احتقارى فى الهوى لِعَوَاذِلِى صَرَفتُ لهم بالى ومِنِّى ومِنْهُمُ

* * *

كلَّما قلت أسترحنا جاءنا الشَّيْخُ الإمامُ
فاعترانا كلَّنا منـ ـه انقباضٌ واحتشامُ
فَهْوَ فى المجلس فَدْمٌ ولنا فهو فِدامُ
وعلى الجملةِ فالشَّيْخُ ثقيلٌ والسلامُ

* * *

هُمْ عَلَّمُوهْ فصار يَهجُرنى رَبِّ خُذِ الحقَّ من مُعَلِّمِهِ

* * *

سَلِّمْ عَلَىَّ إذا مَرَرْ تَ فلا أقلَّ من السَّلامِ
الغدْرُ فى كلِّ الطبا عِ فلا أَخُصُّك بالملامِ
ما أكثرَ العُذَّالَ فى وَلَهى عليكَ وفى غَرامى
هَبْنِى كتمتُهمُ هوا كَ فكيف أكتُمهم سَقَامِى

* * *

يأيها البَاذِلُ مجهودَه فى خِدْمةٍ أُفٍّ لها خِدْمَهْ

إلى متى فى تَعَبٍ ضائع بدون هذا تأكل اللُّقمه
تشقَى ومَنْ تشقَى له غافلُ كأنّك الراقصُ فى الظُّلمه

* * *

بَرِحَ الخفاء وقلتُها منِّى إليك بلا احتشامِ
لم تَبْقَ فيك بقيّةٌ لا للحلالِ ولا الحرامِ

* * *

خَلَّيتُ كلَّ الناسِ ماخلَا كُمُ وقلتُ ما لى أحدٌ سِوَاكُمُ
وأتمُ عَلَىَّ ما أجفاكُمُ خُلْقِىَ خُلْقِى دائما أرعاكُمُ
وكل ما أسخطنى أرضاكُمُ واللهِ لا أفلحَ مَنْ يهواكُمُ
و بعد ذا سُبحانَ من أعطاكُمُ

* * *

من رآنى يرِقُّ لِى ضائعاً فى يدَيكُمُ
كان ما كان بيننا وسلامٌ عليكُمُ

* * *

لَعَنَ اللهُ حاجةً ألجأتنى إليكُمُ
وزماناً أحالنى فى أمورى عليكُمُ
فعسى اللهُ أن يُخلِّـ ـصَنِى من يديكُمُ

* * *

تركتنِي يا ألفَ مَوْ لاىَ بِأَلْفِ نِعْمَهْ

* * *

كم أناسٍ أظهروا الزهدَ لنا فتجافَوْا عن حَلَالٍ وحرامِ
قلّلوا الأكلَ وأبدَوْا وَرَعًا واُجتهادًا فى صيامٍ وقيامِ
ثم لمّا أمكنتهم فرصةٌ أكلوا أكل الحَزَانَى فى الظّلامِ

* * *

سَمع الناسُ وقُلنا واُفتضحنا واُسترحنَا
بتَّ والبدرُ نديمى ففَعَلْنا وتركنا
بات يدعونا التَّصَابى فسمِعنا وأطَعنا
وجعلناهُ يقيناً بعدَ ما قد كان ظَنّا
شَكَرَ اللهُ لِمَنْ بَشَّ رَ بالوصلِ وهنَّا
لى حبيبٌ لِىَ منهُ كلُّ شىءٍ أتمنَّى
فهْوَ بدرٌ يتجلّى وهو غصنٌ يَتَثَنَّى
كان غضبانَ فلمّا أن تلاقَيْنَا اُصطلحنا
يتجنَّى ولعَمْرِى حَقُّه أن يتجنَّى
جمَعَ الحسنَ وفيهِ غير ذاك الحسنِ مَعْنَى

مَنْ له مثلُ حبيبى قَدْ حَوَى حُسناً وحُسْنَى
هاتِ حَدِّثنِي وقل لِي ما على العاذلِ مِنّا
نحن لا نسألُ عنه ما له يسألُ عنّـا

* * *

محبّتِي تُوجبُ إدلالِي وأنت ذو فَضْلٍ و إفضالِ
و بيننا من سالف الودِّ ما يُوجب أن تسألَ عن حالِي
فاجعَلْ على بالك شُغْلِي كما شُـكْرُك لا يَبرَحُ عن بالِي

* * *

لك يا صـديقى بَغْلةٌ ليست تُساوِى خَرْدَلَهْ
تمشِى فتحسبُها العيو نُ على الطريق مُشَكَّلَهْ
وتُخَالُ مُدْبِرةً إذا ما أقبلت مُسـتعجلَهْ
مقدارُ خُطْوتها الطو يلةِ حين تسرع أنملَهْ
تهتزُّ وَهْىَ مكانَها فكأنما هى زلْزَلَهْ
أشبهتَها بل أَشْبَهَتْ لكَ كأن بينكما صِـلَهْ
تَحكِى صفاتِك فى الثّقا لةِ والمهانةِ والبَـلَهْ

* * *

فليتَ شعرِى متى تخلُو وتُنصِتُ لِى
حتّى أقولَ فقلبى منك مَلآنُ
إيَّاكَ يدرِى حديثاً بيننا أحدٌ
فهم يقولون : للحيطانِ آذانُ
مَنْ لِى بنَوْمِىَ أشكو ذَا السُّهادَ له
فهمْ يقولون : إنَّ النومَ سلطانُ
أستخدم الريحَ فى حَمْلِ السلامِ لكم
كأنما أنا فى عَصْرِى سليمانُ

* * *

تُجَدِّدُ صبوةً فى كلّ يومٍ
وتَسْكَرُ سَكْرَةً من كلّ دَنِّ
أقول الحقَّ مالك من صديقٍ
فلا تَعتِبْ علىّ ولا تَلُمْنى
نصَحتُكَ لو صَحَوتَ قَبِلتَ نُصْحِى
ولكنْ أنت فى سُكرِ التَّجَنِّى
ومَنْ سَمِعَ الغِناءَ بغير قلبٍ
ولم يَطرَبْ فلا يَلُمِ المُغَنِّى

مرَادِى لو خَبأتُكَ يا حبيبى
مكانَ النّورِ من عينِي وجَفنِي

* * *

لستُ أُصغِي ولا أَعِى خَلِّنى منكَ خَلِّنى

* * *

إنّ المليحَ مَلِيحٌ يُحَبُّ فى كلّ لَوْنِ

* * *

نَرَاكُمْ قد بَدَا منكم أُمورٌ ما عَهِدْناها
كشفتم بيننا أشيا ءَ قد كُنَّا سَتَرناها
وكَمْ جاءتْ لنا عنكم أحاديثٌ رَدَدْناها
وأشياءٌ رأيناها وقلنا ما رأيناها
وما زلتم بنا حتّى جسَرْنا وفَعَلناها
وكانت بيننا طاقٌ فها نحن سَدَدْناها

* * *

سَيِّدِى يومُك هذا ليس يَخْفَى عنك رَسْمُهْ
قُم بنا قد طَلَعَ الفجـ ـرُ وقد أشرق نجمُهْ
عندنا وردٌ جَنِيٌّ يُنعش الميِّتَ شَمُّهْ

ولدينا ذلك الضَّيْـ ـفُ الذى عندك عِلمُهْ
ولنا ساقٍ رشيق أحورُ الطَّرْفِ أَحَمُّهْ
وخِوَانٌ يعبَق المسـ ـكُ بَرِيَّاهُ وطَعْمُهْ
وأخٌ يُرضِيكَ منه فَضْلُه الجَمُّ وَفَهْمُهْ
كَامِلُ الظَّرفِ أَديبٌ شامخ الأنفِ أَشَمُّهْ
حَسَنُ العِشْرةِ لا يأ تِيكَ منه ما تَذُمُّهْ
ومُغَنٍّ زِيرهُ أطر بُ مسموعٍ وبَمُّهْ
وسرورٌ ليس شيءٌ غير رُؤياك يُتِمُّهْ
فأجبْ دعوةَ داعٍ أنت مِن دُنياه سَهْمُهْ
فإذا جئتَ وغاب النا س طُرًّا لا يُهِمُّه

* * *

من اليوم تعارَفْنا ونَطَوِى ما جرى منا
ولا كانَ ولا صارَ ولا قُلْتُم ولا قُلْنَا
وإن كان ولا بُدَّ من العَتْب فبالحُسْنَى
فقد قيل لنا عنكم كما قيل لكم عنّا
كفى ما كان من هجرٍ وقد ذُقتم وقد ذُقنا
وما أحسَنَ أن نَرْجِعَ للوصل كما كُنّا

* * *

لا تَلُمْنِي أو فَلُمْنِي فيك ظُلم وتَجَنِّ
لا تُسَابِقْنِي لعَتْبٍ ما بِذا تَخْلُصُ منِّي
لا تقل إنِّي وإنِّي ليس هذا القولُ يُغنِي
أنا لا أسأل عمَّن لم يكن يسألُ عنِّي
إن تزرنى فبهذا الشـ ـرط أو لَا لَا تَزُرْنِي
فاُستَرِحْ بالله من هذا التَّجَنِّي وأَرِحْنِي

* * *

يا كِتَاباً من حبيبٍ أنا مشتاق إليـه
جاءنى منـه سلامٌ سلّم الله عليه

* * *

يا رسولى قَبِّلِ الأر ضَ إذا جئتَ إليه
ثم عَرِّفْه بأنِّى كنتُ غضبانَ عليه

وفى طبعة پلمر :

إنَّ الرضِيَّ الذى بُلِيت به أفعاله الكلُّ غيرُ مَرْضِيِّ
وكنتُ فى شِدّةٍ برؤيته كمُسلمٍ فى إسار ذِمِّيِّ
و بعد جهدٍ خلَصْتُ من يدِهِ خلاصَ عظمٍ من كَفِّ تُرْكِيِّ

* * *

مضى الشبابُ وولى ماانتفعتُ به ... وليته فارطٌ يُرْجَى تَلَافِيهِ
أَوْ ليت لى عملاً فيهِ أُسَرُّ به ... أو ليتنى لاجرَى لى ماجرَى فيهِ
واحَسْرَتاهُ لِعُمْرٍ ضاعَ أكثرُه ... والويلُ إن كان باقِيهِ كماضيهِ
مَنْ مثلُ قلبىَ أومَنْ مثلُ ساكنِهِ ... الله يحفَظُ قلبى والذى فيهِ

* * *

مولاىَ يا قلبى العزيـ ... ـزَ ويا حياتى الغاليهْ
إنى لأطلبُ حاجةً ... ليست عليكَ بخافيه
أنعِمْ علىّ بِقُبْـلَةٍ ... هِبَـةً وإلاّ عاريه
وأعيدُها لكَ ـ لاعُدِمْـ ... ـتَ ـ بعينها وكما هِيَهْ
وإذا أردتَ زيادةً ... خذْها ونفسى راضيه
فعسى يجود لنا الزما ... نُ بخَـلْوةٍ فى زاويه
أوْ ليتنى ألقاك وَحْـ ... ـدَكَ فى طريق خاليه

* * *

قالوا كَبِرتَ عن الصِّبا ... وقطعتَ تلك النَّاحِيَهْ
فَدَعِ الصِّـبا لرجاله ... واُخلَعْ ثيابَ العَارِيَهْ
ونَعَمْ كَبِرْتُ وإنمـا ... تلك الشمائلُ باقيـه
ويفوح من عِطْفَىَّ أنفا ... سُ الشبابِ كما هِيَهْ

ويميلُ بى نحو الصِّبا قلبٌ رقيقُ الحاشيه
فيه من الطَّرَب القديـ ـم بقيَّـةٌ فى زاويه

* * *

لو ترانى وحبيبى عنـــد ما فرَّ مثلَ الظَّبى من بين يَدَىّ
ومضى يعـدو وأعدو خَلْفَهُ وترانا قد طوَيْنا الأرضَ طَىّ
قال : ماترْجِـعُ عنِّى ؟ قلتُ لا قال : ما تَطْلُبُ منى ؟ قلت شَىْ
فأُنثَنى يحمرُّ منى خَجَـلاً وثناه التِّيـهُ عنِّى لا إلَىّ
كِدتُ بين الناس أن ألْثَمَه آهِ لو أفعلُ ما كان عَلَىّ

* * *

يا أعزَّ الناس عنـدى وعَلَىّ وحبيبًا هـو مِنِّى وإلَىّ
ما له أصـــبح عنّى مُعرِضًا
تحت ذا الإعراض من مولاى شَىّ
يا حبيبى أين ما أعهَـدُهُ يا تُرَى من ذا الذى زاد عَلَىّ
فاتَنِى إذ مرّ ما كلمتُهُ كدت أن آكلَ من غَيْظٍ يدَىّ
أنا مَنْ قَدْ مِتُّ فى العشقِ به هنئونى ، مَيِّتُ العُشَّاقِ حَىّ

فى هذه الأشعار وكثير غيرها مما يُوجد فى ديوان البهاء زهير ؛ عباراتٌ وأساليبُ مِصْرِيّتها أكثرُ من عربيّتها ، والشعراء

يتأبَّوْن أن يستعملوها منذ القِدَم ، وحتّى فى هذه العصور ، ويَعُدُّون ذلك تَبَـذُّلاً وضعفاً وإخلالاً بجمال الشعر وجمـال البيان ، ويُؤثرون لغةَ الشعر فى عصور العربية الراقية ، حتى لا تكاد تفرِّق من جهة اللغة بين الشعر الراقى فى مختلف العصور . ولستَ تجد شاعراً من المعدودين فى أىّ عصر حتى الآن يَرْضَى أن يستعملَ فى شعره كلمة — اليَكّ والشيش — ولا أن يقول :

لست أُصْغِى ولا أعى خَلِّنى منـك خَلِّنى

ولا أن يقول :

سَمِـع النَّاسُ وَقُلْنَا وافْتَضَحْنَا واسترحْنَا

أستغفر الله ! هم لا يُريدون ذلك ، بل ولا يقدرون عليه ، فإنمـا هو السهل الممتنع ، كما يقول ابن خِلِّكان . ولا بدّ من عبقريّة كعبقرية البهاء زهير لتُوَفقَ هذا التوفيق فى إنشاء أشعار من الطراز الأوّل ، يطرَب لها الخاصّة ، ولا تـكون العامّةُ أقلَّ بها طَرَبا ، بلسان هو لسان التحاور ، ولسان البيوت والأسواق .

لم يكن البهاء زهير عاجزاً عن مجاراة غيره من الشعراء المُتَزَمِّتين فى تخيُّر الألفاظ العربية ، المتأنِّقين فى تزيينها بالمحسِّنات ؛ فقد كان رجلاً عالماً دَرَس الأدبَ والدِّين ، وعَرَف من أخبار العرب الجاهليّة

والإسلامية ما ينمّ عليه شعرُه ؛ إذ يُشير إلى الحوادث و يذكر أسماء كثيرين من الشعراء وغير الشعراء . واُختيارُه لكتابة السرِّ فى عهد الأيُّوبيين دليل على منزلته من الرياسة العلميَّة والأدبية فى ذلك العصر .

بل البهاء زهير قد سَلَك مسلك غيره من الشعراء فى تعبيراتهم وتفكيراتهم من مدائحه . ومدائحُ البهاء زهير ، فى غالبها ، دون سائر فنونه الشعريّة طرافةً و إبداعاً ، مع أنّه شاعرُ القصرِ فى عهد الأيُّوبيين ، كما يقول هُيَار . ومن أمثلة هذه المدائح :

لَكَ اللهُ من والٍ ولىٍّ مُقرّبِ ... فكم لك من يومٍ أغرَّ مُحَبَّبِ
حَلَلتَ من المجدِ الممنَّع فى الورَى ... بأرفعِ بَيْتٍ فى العَلَاء مُطَنَّب
يُقَصِّرُ عن أمثاله كلُّ قيصر ... و يُغْلَبُ عن أمثاله كلُّ أغلبِ
جوادٌ متى تَحْلُلْ بِواديه تَلْقَه ... كما قِيل فى آل الجَوَادِ المُهَلَّبِ
أحقُّ بما قال ابنُ قيسٍ لمالكٍ ... وأولى بما قال ابنُ أَوْسٍ لمُصْعَبِ

ولو شاهد العِجْلىُّ جَدْواه ما انْتَمَى

لِعِكرِمة الفَيَّاضِ يوماً وحَوْشبِ

ومن قصيدة له يمدح بها السلطانَ الملك الناصر يوسف بن محمد بن عادى بن يوسف بن أيُّوب :

ومذ كنتُ لم ترضَ النقيصةَ شِيمَتِي
ومثلُك يأباها لمثلى ويَأنف
ولا أبتغى إلاّ إقامةَ حُرْمتى
ولستُ لشىء غيرِها أتأسَّف
ونفسى بحمدِ الله نفسٌ أبيَّةٌ
فهى لا تَهْفُو ولا تَتَلَهَّف
ولكنّ أطفالاً صغاراً ونسوةً
ولا أحدٌ غيرى بهم يَتَلَطفُ
أغارُ إذا هبّ النسيمُ عليهمُ
وقلبى لهم من رحمةٍ يَتَرَجَّف
سرورِىَ أن يبدُو عليهم تَنَعُّم
وحزنِىَ أن يبدو عليهم تَقَشُّفُ
ذَخرتُ لهم لُطفَ الإله ويوسفاً
ووالله لاضاعوا ويوسفُ يوسفُ
أُكَلِّفُ شعرى حين أشكُو مَشَقّةً
كأنِّىَ أدعوه لما ليس يُؤْلفُ

وقد كان معتاداً لكل تَغَزُّلٍ
تَهِيم به الألبَابُ حُسْناً وتُشغَفُ
يلوح عليـــه فى التَّغَزُّلِ رَوْنَقٌ
ويظهَرُ فى الشَّـكوَى عليهِ تَـكَلُّفُ
وما زال شعرى فيه للرُّوحِ راحةٌ
وللقلب مَسْلَاةٌ وللهـمِّ مَصْرِفُ
يُنَاغِيكَ فيه الظَّبْيُ والظبيُ أحورٌ
ويُلهيك فيه الغصنُ والغصنُ أهيَفُ
شكوتُ وما الشكوَى إليكَ مَذلَّةً
وإن كنتُ فيها دائمـا أتأنَّفُ

وله قصيدة فى مدح الأمير النصير اللمطىّ ، أولها :

صَفْحًا لهذا الدهرِ عن هَفَواتِهِ إذ كان هذا اليومُ من حَسَناته
يومٌ يُسَطَّرُ فى الـكتاب مكانُه كمكان باسم الله فى خَتَماتِهِ

ومنهـا :

يا معجزَ الأيام قَرْعَ صَفَاتِه ومُجَمِّلَ الدنيا بِحُسن صِفاتِهِ
قومٌ هُمُ فى البيدِ خيرُ سُرَاتها حسباً وهم فى الدهر خيرُ سَرَاتِهِ
شَرُفَ الزمانُ بكل نَدْبٍ منهمُ مُتَيَقِّظٍ وهبَ العُلَا غفَلاتِهِ

يامَنْسَكَ المعروفِ أحرمَ منطقٍ زمناً وقد لَبَّاكَ من مِيقاته
هَذَا زُهَيْرُكَ لا زُهَيْرُ مُزَيْنَةٍ وافاكَ لا هَرِما على عِلاّته
دَعْه وحَوْليّاتِه ثم استمِع لزُهَير عصرِكَ حسنَ لَيْلِيَّاته
لوأُنشِدتْ فى آل جفْنَةَ أضربوا عن ذكر حَسَّانٍ وعن جفَناته

ومن ذلك قوله فى مدح الملك الكامل ناصر الدين أبى الفتح محمد بن الملك العادل وذكر انتزاعه ثغر دمياط من الإفرنج :

بك اُهتزّ عِطْفُ الدِّينِ فى حُلَلِ النَّصْرِ
ورُدَّتْ على أعقَابها مِلَّةُ الكفرِ
وليلةِ غَزْوٍ للعدوِّ كأنها
بكثرة مَنْ أرديتَه ليلةُ النَّحْرِ
فياليلةً قد شَرّف اللهُ قدرَها
ولا غروَ أن سَمَّيتُها ليلةَ القَدْرِ
سدَدتَ سبيلَ البَرّ والبحر عنهمُ
بسابحةٍ دُهْمٍ وسانحةٍ غُرِّ
أساطيلُ ليستْ فى أساطيرِ مَنْ مَضَى
بكل غُرابٍ راح أفتكَ من صَقْرِ

وجيشٍ كمثل الليل هَوْلاً وهَيبةً
وإنْ زانه ما فيه من أَنجُمٍ زُهْرِ
وكلّ جوادٍ لم يكن قطُّ مثلُه
لآل زُهَيرٍ لا ولا لبنى بَدْرِ
وباتت جنودُ الله فوق ضوامرٍ
بأوضاحها تُغنى السُّراةَ عن الفجرِ
فلا زِلتَ حتى أيّد الله حزبه
وأشرق وجهُ الأرض جذلانَ بالنصرِ
كفى الله دِمياطَ المكاره ، إنها
لِمَنْ قِبلةِ الإسلام فى موضع النحرِ
وما طاب ماء النيل إلاّ لأنه
يَحُلُّ محلَّ الريقِ من ذلك الثغر

ومن قصيدة يمدح بها علاء الدين على بن الأمير شجاع الدين جلدك :

فيا ظبيُ هَلاّ كان منك التفاتةٌ
ويا غصنُ هَلاّ كان فيكَ تَعَطُّفُ

ويا حَرَمَ الحسنِ الذى هو آمنٌ
وألْبابُنا من حوله تُتَخَطَّفُ
عسى عطفةٌ للوصلِ يا واوَ صُدْغِه
علىّ فإنِّى أعرف الواوَ تَعْطِفُ

ومن قصائده فى مدح الملك السلطان الصالح نجم الدين أيُّوب ، وذلك فى سنة ٦٢٢ كما فى طبعة پلمر ، ولعلها أولى قصائده فى مدحه حين جاء من قوص إلى القاهرة واتصل به :

وعدَ الزيارةَ طَرْفُه المتملِّقُ
وتلاف قلبى من جفون تَنْطِقُ
إنى لأهوَى الحسنَ حيثُ وجدتُه
وأَهِيم بالقَدِّ الرشيقِ وأَعْشَق
وبَلِيّتى كَفَلٌ عليه ذُؤابةٌ
مثل الكثيب عليه صِلٌّ مُطرِقُ
إن عَنَّفوا ، إن سَوّفوا ، إن خَوّفوا
لا أنثنى ، لا أتهى ، لا أفرَق
ويَزيدُنى تَلَفًا فأشكرُ فضلَه
كالمسك تَسحَقُه الأكُفُّ فيَعْبَق

ولقد سعيتُ إلى العَـــلَاء بهمَّةٍ
تَقضِى لســـعيى أنه لا يُخْفِـق
وسريتُ فى ليـــلٍ كأَن نجومَه
من فَـرْطِ غَيْرتها إلىّ تُحَـدِّق
حتَّى وصلتُ سُرَادِقَ الملكِ الذى
تقف المـلوكُ ببابه تَسْـــترزِقُ
فإليـــكَ يا نجمَ السماءِ فإنّنى
قـد لاح نجـمُ الدِّين لِى يتـألق
الصـــــــالحُ الملكُ الذى لزمانه
حُسنٌ يتيـــهُ به الزمانُ ورَوْنق
ملأ القـــلوبَ مخـافةً ومَحبَّـةً
فالبأس يُرْهَب والمكارم تُعشَق
فعَدَلتَ حتّى ما بهـا متظَلِّمٌ
وأنلتَ حتّى ما بهـا مُسترزِقُ
يا مَنْ رفضتُ الناس حين لقِيتُهُ
حتّى ظننتُ بأنَّهـــم لم يُخلقوا

قيّـدتُ فى مصرٍ إليكَ ركائبى
غيرِى يُغَرّب تارةً ويُشَرِّق
وحَلَلتُ عندك إذْ حللتُ بمَعْقِـل
يُلْقى إليـــه ماردٌ والأبلقُ
وتَيقّنَ الأقوامُ أنّىَ بعـــدَها
أبداً إلى رُتبِ العُلَا لا أُسْـبَقُ
فرُزِقتُ ما لم يُرزَقوا ونطقتُ ما
لم يَنْطِقوا وَلَحِقْتُ ما لم يلحقوا

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين بن الملك العزيز محمد :

عَرَف الحبيبُ مكانَه فتَدَلَّلَا وقَنِعتُ منه بموعدٍ فتعَلَّلَا
وأتى الرسولُ فلم أجِدْ فى وجهه بِشْرًا كما قد كنتُ أعهدُ أوّلا
فقَطَعْتُ يومى كلّه متفكّراً وسَهِرتُ ليلى كلّه مُتململِـلَا
وأخذتُ أحسب كل شىءٍ لم يكن
متحرّكاً فى فكرتى مُتَخَيِّلا
فلعلّ طيفاً زارَ منهُ فردّه سَهَرِى فعاد بغيظِه فتقوّلا
وعسى نسيمٌ بِتُّ أكتُمُ سِرَّنا عنه فراح يقول عَنّى قد سلا
ولقد خشِيت بأن يكون أماله غيرِى،وطبع الغصنِ أن يَتمَيَّلَا

وأظنّـه طلبَ الجديدَ وطالما عَتُق القميص على امرئ فتبدّلا
أهوَى التذللَ فى الغرامِ و إنما يأبَى صلاح الدين أن أتذلّلا
مَهّدتُ بالغَزَل الرقيق لمدحه وأردت قبل الفَرْض أن أتنفّلا
يا مَنْ مديحى فيه صدقٌ كلُّه فكأنّما أتلو كتاباً مُنْزَلا
يا مَنْ وَلَائى فيه نَصٌّ بَيِّنٌ والنّصُّ عند القوم لن يُتأوَّلا

ولعل البهاء زهيراً كان يشعر بما يكتنف مذهبَه الجديدَ فى الشعر من تنقيص خصومِه ، ومن ضعف الأذواق التى أفسدها التكلُّف عن تذوّقه ؛ لذلك كان يسلك فى الشعر الرسمى — شعرِ المديح — المذهب القديمَ غالباً ؛ و يظهر عليه ، فى كثير من الأحيان أنه يحاول غير مافى طبعه ، حتى إذا هَتَفت بالشعر عواطفُه ، عاد إلى مذهبه السهل البسيط ، الخالى من التصنُّع ، القريب من الفِطَر .

ولمذهب البهاء زهير خصوم ، نجد صدَى أحكامهم فى قول صاحب كتاب « مرآة الجنان وعبرة اليقظان » لليافعى اليمنى المتوفى سنة ٧٦٨ :

« قال ابن خلّكان : وكل شعره لطيف ، وذكر شيئاً منه فى تاريخه ، ولكن للاختصار والتخفيف لم أكتب شيئاً منه ولا أعجبنى ولا قوّى عزمى الضعيف » .

لكن لمذهب البهاء زهير مريدون كثيرون يرون شعره لطيفاً من السهل الممتنع ، كما نقلنا عن ابن خلّكان .

و يرى پلمر ، فى مقدّمته لديوان شاعرنا ، أن عصر البهاء زهير كان أكثر العصور صلةً بين الثقافة العربيّة وثقافة الغَرْب ، بسبب الحروب الصليبية وما تبعها من اُستقرار مملكة غَرْبية فى فِلَسطِين زمناً . ويقول : إن شعر البهاء زهير يُشابه الشعرَ الأوربىّ ، وأكثر أفكاره تُحاذى أفكارَ الشعراء الإنجليز فى القرن السابع عشر .

* * *

الناحية الثانية من نواحى عبقريّة البهاء زهير فى النهضة الشعرية — ناحية الأوزان .

أسلفنا أنه كانت فى عهد البهاء زهير اُنتشرت أوزانُ التوشيح الآتية من الأَنْدَلُس ؛ وذلك لا بدّ أن يكون نبَّه الشعراء إلى فنّ من الألحان الشعرية جديد ، فاُهتدت الفِطَر الموسيقيَّة إلى اُختيار البحورِ اللطيفة والأوزان الموفورة الحظّ من الموسِيقَى ومن التأثير . وهذا شأن البهاء زهير ؛ فإننا نجده فى غير شعر المديح قلما يَركَنُ إلى غير الأوزان الخفيفة . يقول :

هو حَظِّى قد عَرَفتُهْ لم يَحُلْ عمّا عَهِدْتُهُ
فإذا قَصّر مَنْ أهـ ـواهُ فى الودّ عذرتُهْ
غير أنّى لِىَ فى الحُبّ طريقٌ قد سَلَكْتُه
لو أراد البُعدَ عنّى نورُ عينى ما تَبِعتُه
إنَّ قلبى وهو قلبى لو تَجَنَّى ما صَحِبتُه
كلّ شىءٍ من حبيبى ما خلا الغَدْرَ احتملتُه
أنا فى الحبّ غيورٌ ذاك خُلْقٌ لا عَدِمْتُهْ

* * *

وقال دُوبيت :

قد راحْ عذولى ومثل مَا رَاحْ أتى
باللهِ مَتَى نقضتم العهدَ مَتَى
ماذا ظننّى بكم وماذا أملى
قد أدرك فىّ سُؤْلَه مَن شَمِتَا

* * *

هَبَّ النسيمُ عليلاً وهو النسيمُ الصحيح
وطاب وقتُكَ فانهَضْ فالآن طابَ الصَّبُوح
وخُذْ عن الكأس نوراً به يُضىء الفَسِيح

مِنْ قَهوة طابَ منها طعمٌ ولونٌ وريحُ
فى دَنّها وهْىَ راحٌ وفى الحشا وهْىَ رُوح

* * *

يا مُعْرِضاً مُتَجَنِّياً حاشاك يا عينى ورُوحِى
لم تدرِ ما فعلَ البكا ءُ عليكَ بالجفنِ القَريحِ
وجَرَحْتَ قلبى بالجفا ءِ فآهِ للقلبِ الجريحِ
قُبِّحْتَ فىّ بما فعلـ تَ ولستَ من أهل القبيحِ
إن كنتَ منّى مُستريـ ـحًا لستُ منك بمستريحِ
فمتى أفوزُ بنظرة من وجهك الحَسَنِ المليحِ
لك من ضميرى ما علمـ تَ به من الودِّ الصريحِ
وكذاك أنتَ فسَلْ ضميـ ـرَكَ فهو يشهد بالصحيحِ

* * *

يا فاعلَ الفَعْلة التى اُشتهرتْ لم تجرِ فى خاطرى ولا خلَدِى
فعَلْتَها بعد عِفّةٍ وتُقىً فيَالها سُبَّةً إلى الأبدِ
هذا وأنت الذى يُشار له لا عَتْبَ من بعدها على أحدِ

* * *

حبيبى تائهٌ جِدًّا أطال العَتْبَ والصَّدَّا

حَمانى الشَّهد من فِيهِ وخلى عندىَ السُّهْدا
وهيفاء كما تهوَى تُريك القدَّ والخدّا
وتُشجيكَ بألحانٍ تُذيب الجَلْمَدَ الصَّلْدَا
ولفظٍ يُوجب الغسلَ على السامع والحَدّا
جزى الرحمن شعباناً تقصّى الشكرَ والحمَدا
وإن عِشنا لشوّالٍ أعدنا ذلك العهدا

* * *

قد أتانا الطَّبَقُ الملـ ـآن بالورد النَّضِيدِ
غيرَ أنّى لا أُحِبُّ الـ ـوردَ إلا فى الخدود
وأتانى منك شعرٌ كلُّ بيت بقصيدِ
كاملُ الحسنِ فما أغْـ ـناه عن حسنِ النشيدِ

فى رثاء :

أمسيتَ فى قَعْرِ لحدِ ورُحْتُ منك بوجدِ
وعشتُ بعدك يا مَن وَددتُ لو عِشتَ بعدى

فى هجو :

لعن الله صاعِدًا وأباهُ فصاعِدًا

وبَنيـهِ فنـازلاً واحداً ثم واحداَ

* * *

جاء الرسـول مُبَشِّرِى منهـا بميعـادِ الزيارَهْ
أهـدَى إلىّ سـلامَها وأتى بخـاتَمِها أمارَهْ
وأشار عن بعض الحديـ ـثِ وحبَّذا تلك الإشارَهْ
إن صحّ ما قال الرسو ل وهبتُـه رُوحى بِشارَهْ

* * *

حبّـذا دُورٌ على النيـ ـلِ وكاساتٌ تدورُ
ومَسَرّاتٌ تموجُ الأر ضُ منهـا وتمـورُ
وقصـورٌ ما لعيشٍ نلتُـه فيهـا قُصـورُ
كم بهـا قد مرّ لى أستـ ـتغفر اللهَ سـرورُ
كلُّ عيشٍ غيرَ ذاك الـ ـعيشِ فى العـالَمِ زورُ
منزلٌ ليس على الأر ضِ له عنـدى نظيرُ

* * *

وجاهل أصـبح لى عائباً قلت على العينين والرَّاسِ
أراه قد عَرّضَ لى عِرْضَه أُشهدكم يا مَعْشَرَ الناسِ

* * *

دعونى وذاك الرَّشا فوجدِى به قد فَشَا
حَلَالاً حلالاً له يُعذّبنى كيف شاَ
سَرَتْ خمرةُ الريقِ فى مَعَاطِفِه فاُنتشَى
فيا مَشْقَ ذاك القَوا مِ ويا طَىَّ ذاكَ الحشاَ
مشى لِىَ فى خُفْيةٍ فيا حبَّذا مَنْ مشَى
وليس عجيباً بأن ترى الظبىَ مُستوحشاَ

* * *

مالى أراكَ أضعتَنى وحَفِظتَ غيرى كلَّ حِفْظِ
متهتِّكاً فإذا حضر تُ تَظَلُّ فى نُسك ووعظِ
فَظًّا علىّ ولم تكن يوماً على غيرى بفظِّ
هذا وحقِّ الله مِنْ نَكَدِ الزمانِ وسُوء حَظِّى

* * *

مائدةٌ مُنَوَّعهْ وقهوةٌ مشعشَعَهْ
وسادة تراضعُوا كأسَ الودادِ مُتْرَعَهْ
ولا يزيدون على ثلاثةٍ أو أربعهْ
فاليومُ يومٌ لم يَزَلْ يومَ سكون ودَعَهْ
فيا أخى كن عندنا بعد صلاة الجُمُعَهْ

* * *

نائهٌ ما أصْلَفَهْ ويحَ قلبٍ أَلِفَه
كاد أن يُتلفَهُ ليتَه لو أتلفَهْ
أىُّ روض زاهرٍ لم أصِلْ أن أقطِفَه
وقضيبٍ ناعمٍ لم أُطِقْ أن أعْطِفَهْ

* * *

تعيشُ أنت وتبقَى أنا الذى متُّ عِشْقَا
حاشاك يا نورَ عينى تلقَى الذى أنا ألقَى
ولم أجِدْ بين موتى و بين هَجْرِكَ فَرْقا
يا أنعمَ الناسِ قُلْ لى إلى مَتَى فيك أشقَى

* * *

أحبابَنا حاشا كُمُ من غَضَبٍ أو حَنَقِ
أحبابَنا لا عاش مَنْ يُغْضِبُكم ولا بَقِى
هذا دلالٌ منكمُ دعُوه حتى نلتقى
واللهِ ما خرجتُ فى حبِّى لكم عن خُلُقِى
وما بَرِحتُ فى سُتو رِ فضلكم تَعَلُّقِى
ويلاه ما يلقاه قلـ بى منكمُ وما لَقِى
إن لم تجودوا بالرضَى فبشّروا قلبى الشَّقِى

وَاخَجْلتى منكم إذا عَتَبتمُ واحَـــرَقِى
أكادُ أن أغرِقَ فى دمعِىَ أو فى عَرَقِى
ما حِيلتى فى كَذِبٍ من حاسدٍ مُصدَّقِ

* * *

ويحكَ يا قلبُ أمَا قلتُ لَكْ إيّاكَ أن تَهْلِكَ فيمن هَلَكْ
حَرَّكتَ من نار الهوى ساكناً ما كان أغناكَ وما أشْغَلَكْ
ولى حبيبٌ لم يَدَعْ مَسْلَكاً يُشمِتُ بى الأعْداءَ إلاّ سَلَكْ
مَلَّكتُهُ رُوحى وياليتَـــه لو رَقّ أو أحسنَ لّما مَلَكْ
باللهِ يا أحمرَ خَدَّيْهِ مَنْ عَضَّك أو أدماك أو أخجلكْ
وأنت يا نَرْجِسَ عينيــه كَمْ تشربُ من قلبى وما أذْبلكْ
ويا لَمَى مَرْشَـــفِه إنّنى أغارُ المِسْوَاكِ إذ قَبَّلَكْ
ويا مَهَزَّ الغصنِ من عِطْفِهِ تبـارك الله الذى عَـدَّلكْ
مولاى حاشاك تُرَى غادرًا ما أقبحَ الغَـدْرَ وما أجْملك
ما لَكَ فى فِعلكَ مِن مُشْـبِهٍ ما تَمّ فى العـالم ما تَمّ لَكْ

* * *

كل شىء منك مقبولُ وعَلَى العينين محمولُ
والذى يُرضِيك من تلَفِى هَيِّنٌ عنـدى ومبذولُ

* * *

وجاهلٍ يجهلُ ما يقولُ أقوالُه ليس لها تأويلُ
لها فُصولٌ كلها فُضولُ كثيرُ ما يقوله قليلُ
فهى فروعٌ ما لها أصولُ كلامُه تَمُجّه العقولُ
أتعبنى حديثُه الطويلُ فليتَه كان له محصولُ
وجملةُ الأمرِ ولا أُطِيلُ هو الرّصاصُ باردٌ ثقيلُ

* * *

مالَهُ عَنِّىَ مالَا وتجنَّى فأطالَا
أتُرَى ذاك دلالا من حبيبى أمْ مَلالَا

* * *

منزلٌ إنْ زرتَه لم تلقَ إلا كَرَمَكْ
و إن تَسَلْ عَمَّنْ به لم تلْقَ إلا خَدَمَكْ

* * *

أبا يحيى وما أعرِ فُ مَنْ أنت أبا يَحْيَى
فحدِّثنى وقُلْ لى أىُّ شىءٍ أنت فى الدنيا
من الجن ؟ من الإنس ؟ من الموتى ؟ من الأحيا ؟
بعيدٌ منك أن تُفلِحَ فى شىءٍ من الأشيا
فلا أهْلاً ولا سهلاً ولا سَقْيًا ولا رَعْيَا

***

وندیمٍ بِتُّ منـــه ناعمَ البـــالِ رضيّا
جاءنی یحملُ کأسًا قارن البـدرُ الثریّا
قال خُذها قلتُ خذها أنتَ واُشربْها هَنِیّا
لا تزِدْنی فوق سُکری بالهوَی سکرَ الحُمَیّا
عنـدها أعرَضَ عنّی مُطْرِقَ الرأسِ حَیِیّا
قلت لا والله إلاَّ هاتِهـــا کأسًا رَوِیّا
لستُ أعصِی لك أمراً لستُ أعصِی لك نَهْیَا
فَسَقَانِیهـــا عُقَارًا تترك الشیخَ صَبیّا
وتُریكَ الغیَّ رُشـداً وتُریك الرُّشـدَ غَیّا
لم یَزَلْ منّی إلیه الـ ـکأسُ أو منهُ إلیّا
هکذا حتّی بدا الصُّبْـ ـحُ لنـا طَلْقَ المُحَیّا
یالهَـا لیلةَ وصـــلٍ مثلُهـا لا یَتهیّـا

هذه أمثلة الأوزان التی یستعملها البهاء زهیر فی شعره والقوافی وفیها من اللطف وحسن النغمة شیء کثیر .

وذکر بعض المترجمین للبهاء زهیر أن له وزناً مُخترعا لا یُخرجه العروض ، فی قوله :

يا مَنْ لَعِبَتْ به شَمُول ما ألطفَ هـذه الشّمائلْ
نَشْوانُ يَهُزُّه دَلال كالغصنِ مع النسيم مائلْ
لا يُمكنه الكلامُ لكن قد حَمّلَ طَرْفَه رسائلْ
ما أطيبَ وقتَنا وأهْنَا والعاذلُ غائبٌ وغافل
عشقٌ وَمَسَرَّةٌ وسكرٌ والعقلُ ببعضِ ذاك ذاهلْ
والبدرُ يلوح فى قِناعِ والغصنُ يميل فى غلائلْ
والوردُ على الخدود غَضٌّ والنَّرْجِسُ فى العيون ذابلْ
والعيشُ كما نُحِبُّ صافٍ والأُنس بما نحبّ كامل

ويحاول العروضيُّون أن يجدوا لهذا الوزن مخرجا فى علمهم ، كما فعل الدَّمَامينى فى شرح الخَزْرجيّة . وليس الذى يهمنا أن يكون البهاء زهير ابتدَع أوزاناً لا يُسيغها علم العروض ؛ لكن البهاء زهيراً من غير شك اختار لشعره ألطف الأوزان وأدناها محبةً إلى الذوق السليم ، واُستخرج من ذلك ما لم يكن مستعملا فى عهده ولا قبل عهده ولا بعده إلا قليلا .

* * *

الناحية الثالثة — ناحية الموضوعات الشعرية .

ما وصل إلينا من شعر البهاء زهير يجمع كل ما تَعَرَّض له

شعراء العربيّة من فنون الشعر : كالمديح ، والهجاء ، والغزل ، والنسيب ، والوصف ، والخمريّات ، والرثاء ، والفخر .

ومديح البهاء زهير أقلُّ شعره تَشَبُّعاً بِرُوحه فى الغالب ؛ وله فيما عدا ذلك نَمَطٌ خاصّ يُخرج الموضوعات المطروقة إلى نوع من الطرافة . وذكر بلمر مثالا لذلك قولَه فى المشيب :

فَقَدَ انجلى لَيْلُ الشبا ... بِ وقد بدا صُبْحُ المشيبِ
ورأيتُ فى أنوارِه ... ما كان يَخْفَى من عُيوبى

وقوله فى الموت عِشْقاً :

أنت رُوحى وقد تملَّكتَ رُوحى ... وحياتى وقد سَلَبتَ حياتِى
مِتُّ شوقاً فأحْيِنِى بوصال ... أُخبر الناسَ كيفَ طعمُ المماتِ

وقوله :

فخذ مَرَّةً رُوحى تُرِحْنى ولم أكن ... أموتُ مِراراً فى النهارِ وأُبعَثُ

* * *

ألاَ إنّ عندى عاشقَ السُّمْرِ غالطٌ
وإنّ المِلاحَ البِيضَ أبْهَى وأبْهَجُ
وإنِّى لأهوَى كلَّ بيضاءَ غادةٍ
يُضىء لها وجهٌ وثغر مُفَلَّجُ

وحَسْبِيَ أنّى أتبعُ الحقَّ فى الهوَى
ولا شَـكَّ أنّ الحقَّ أبيضُ أبلجُ

* * *

يا كثيرَ الصدود والإعراضِ أنا راضٍ بما به أنت راضِ
هاتِ بالله يا حبيبىَ قل لى أين ذاك الرِّضَى وأين التغَاضى
إنّ لى حاجـةً إليك وإنى فى حَياءٍ عن ذكرها وانقِباضِ
حاجةٌ مذ أردتُها أنا فى التَّعْـ ـريضِ عنها وأنت فى الإعراضِ
أمَلى فيكَ دونه سيفُ لحظٍ ذاكَ مستقبلٌ وهذاك ماضى
أشتهى أن أفوزَ منك بوعدٍ ودع العمرَ ينقضى فى التقاضى

* * *

يا مانعاً حلوَ الرِّضَى وباذلاً مُرَّ السَّخَطْ
حاشاك أن تَرْضَى بأنْ أموتَ فى الحبّ غَلطْ

وغير ما ذكره بلمر كثيرٌ مضى بعضُه فيما مرّ ؛ ومنه قول شاعرنا فى كتمان اسم الحبيب :

فَعرِّضْ إذا حدثتَ بِالْبَانِ والحِمَى
وإيَّاكَ أن تَنْسَى وتَذْكُرَ زينبا
ستكفيك مِنْ ذاك المسمَّى إشارةٌ
ودَعْـــه مصوناً بالجمال مُحَجّبا

أشِرْ لى بوصفٍ واحـدٍ من صِفاته
تـكن مثـلَ مَنْ سَمَّى وكَـنَّى وَلَقَّبَا

* * *

عَجِبتُ لِطَيْفٍ زار باللّيل مَضجَعِى
وعادَ ولم يشفِ الفؤادَ المعـــذَّبَا
وما صـدَّ عن أمرٍ مُريبٍ وإنَّما
رآنى قتيـــلاً فى الدُّجَى فتهيّبا

* * *

وقوله فى المشيب أيضاً :

وليس مشيباً ما ترون بعارضى ... فلا تمنعونى أَنْ أَهيمَ وأطرَبا
فما هو إلا نور ثغرٍ لَثِمتُه ... تَعلّق فى أطراف شِعرى فألهبَا
وأعجبنى التجنيسُ بينى و بينه ... فلما تبدَّى أشنباً رُحتُ أشيبا
وهيفاء بيضاء الترائب أبصرتْ ... مشيباً فأبدتْ روعةً و تَعَجُّبا
جنتْ لِىَ هذا الشيبَ ثم تجَنَّبَتْ ... فوا حَرَبَا ممن جَنَى وَتجنَّبا

* * *

جاءت تُوَدِّعُنِى والدمـــعُ يغلِبُها
يومَ الرحيلِ وحادى البين مُنْصَلِتُ

وأقبلتْ وَهْىَ فى خوفٍ وفى دَهَشٍ
مثلَ الغَزالِ مِنَ الأشراكِ يَنفَلِتُ
فلم تُطِقْ خِيفةَ الواشِى تُوَدعنى
ويحَ الوُشاة لقد نالوا وقد شَمِتوا
وقفتُ أبكى وراحتْ وَهْىَ باكيةٌ
تسير عنِّى قليلاً ثم تلتفتُ

وقوله فى الوُشاة :

إنى لأشكر للوشاةِ يداً عندى يَقِلُّ لمثلها الشكرُ
قالوا فأغرَوْنا بقولهمُ حتى تأكَّدَ بيننا الأمرُ

وقوله فى الغَيْرَة :

وأُنَزّه اسمَكِ أن تمُرّ حروفُه من غَيْرتى بمسامعِ الجُلاَّسِ
فأقول بعضُ الناسِ عنك كنايةً خوفَ الوشاةِ وأنتِ كلُّ الناسِ
وأغار إنْ هَبَّ النَّسيمُ لأنَّه مُغْرًى بهَزِّ قَوامِك المَيّاسِ
ويَرُوعُنى ساقِى المُدامِ إذا بدا فأظُنُّ خَدَّكَ مشرقاً فى الكاسِ

* * *

صدق الواشون فيما زعموا أنا مُغْرًى بهواها مغرَمُ
فَلْيَقُلْ ما شاء عنّى لائمى أنا أهواها ولا أحتشمُ

غلبَ الوجدُ فلا أكتمهُ إنَّما أكتمُ ما يَنْكتمُ
أَيْنَ من يَرْحَمُنى أشكُو له إنَّما الشكوى إلى مَنْ يَرْحَمُ
أيها السائل عن وجدى بها إنه أعظمُ مما تزعُمُ
ظُنَّ خيراً بيننا أو غيرَه فحبيبى فيه تحلو التُّهَمُ

ورقة البهاء زهير فى غزَله أظهرُ من أن تحتاج إلى بيان ، وقد استشهد لها پلمر بقول البهاء يخاطب رسولَ حبيبه :

ودَعْنى أفُزْ من مُقْلَتَيْك بنظرةٍ فعهدُها ممن أُحِبُّ قريبُ

* * *

ومن مختاراته فى هذا الباب قوله :

وغانيـــةٍ لما رأتْنِىَ أعْوَلت
وقالت عجيبٌ يا زُهَيْرُ عجيبُ
رأتْ شعراتٍ لُحْنَ بيضاً بمَفْرِقِى
وغُصْنِىَ من ماء الشبابِ رطيبُ
لقد أنكرتْ منِّى مشيباً على صِباً
وقالت مشيبٌ ؟ قلت ذاك مشيبُ
أروح ولى فى نشوةِ الحب هِزَّةٌ
ولستُ أُبالى أنْ يقال طروبُ

مُحِبٌّ خليعٌ عاشقٌ متهتِّكٌ
يَلَذُّ لقلبي كلّ ذا ويطيبُ
خلعتُ عِذَارى بل لَبِستُ خَلاَعتى
وصَرَّحتُ حتى لا يقالَ مريبُ
وَفَى لِيَ مَنْ أهوَى وصَرَّحَ بالرِّضى
يموت بغيظٍ عاذلٌ ورقيبُ
فلا عيشَ إلاّ أَنْ تُدارَ مدامةٌ
ولا أُنْسَ إلاَّ أنْ يزورَ حبيبُ
وإنِّى ليدعونى الهوَى فأُجيبُه
وإنِّى ليَثْنينى التُّقَى فأُنيبُ
فيا مَنْ يُحِبّ العفوَ إنِّىَ مذنبٌ
ولا عفوَ إلّا أَنْ تكونَ ذنوبُ

* * *

أهوى الدقيقَ من المحا سنِ والرقيقَ من النسيبِ

* * *

ومن دلائل تساميه فى فهم الجمال عن الصورة المبذولة إلى المعنى الدقيق ، تَغَزُّله فى اُمرأة طويلة ، وفى اُمرأة قصيرة ،

وفى بيضاء ، وفى سمراء ، وتغزُّله فى عمياء إذ يقول :

قالوا تَعَشَّقْتَها عَمْيَا فقلتُ لهم
ما شَانَهَا ذاك فى عينى ولا قدَحَا
بل زاد وجدِىَ فيها أنّها أبداً
لا تُبصر الشيبَ فى خَدِّى إذا وضَحَا
إن يَجْرَحِ السيفُ مسلولاً فلا عَجَبٌ
وإنما عَجَبى من مُغْمَدٍ جَرَحا
كأنما هى بستانٌ خلوتُ به
ونام ناظرهُ سكران قد طفحا
تَفتَّحَ الوردُ فيه من كمائمه
والنَّرْجِس الغَضّ فيه بعدُ ما اُنفتحا

وله أيضاً :

يا صارِفِ القلبِ إلاَّ عَنْ مَحَبَّتِهِمْ
وسالبى الطَّرْفِ إلا عنهمُ نَظَرَهْ
وبِتُّمُ الليلَ فى أَمْنٍ وفى دَعَةٍ
وليس عندكمُ علمٌ بمن سَهِرَهْ

فكم غرستُ وفائى فى محبّتِكم
فما جَنَيتُ لغَرْسى فيكُمُ ثمرَه
ولم أنَلْ منكُمُ شيئاً سِوَى تُهَمٍ
تُقَال مشروحةً فينا ومُختصَرَه
قوِيّة العزم فى إتلافِ عاشقِها
ضعيفة الخَصْرِ والألحاظِ والبَشَرهْ

ومن ذلك قوله :

فلا تبعثوا لى فى النسيم تحيَّةً فيرتابَ من طِيبِ النسيم جَلِيسِى
وكنتُم وَعدتم فى الخميسِ بزَوْرةٍ فكم من خميسٍ قد مضى وخميسِ
وإنّى لأرضَى كلَّ ما ترضَونَه فإنْ يُرضِكم بُوسِى رضيتُ ببُوسِى
على أنّ لى نَفْسًا علىّ عزيزةً وفى الناسِ عُشّاقٌ بغير نُفوس

ويظهر فى غزل البهاء زهير صِدقُ اللَّهْجة وكمالُ الفهم لجمال المرأة والتأثّر به :

فلا تقْرَعُوا بالعَتبِ قلبى فإنَّه
وحَقِّكمُ مثلُ الزُّجاجِ صَدِيعُ
سأبكِى وإن تَنْفَدْ دموعِى عليكُمُ
بكَيتُ بشِعرٍ رَقّ فهو دموعُ

أُحِبّ البديعَ الحُسنِ معنًى وصورةً
وشعرِىَ فى ذاك البديعِ بديعُ

وله فى العشق وتقديره نظرٌ دقيق ، فهو يقول :

ملأْتُمْ فؤادى بالهوى فهو مُتْرَعٌ
ولا كان قلبٌ فى الهوى غير مترع

ويقول أيضاً :

لَحَا الله قلباً بات خِلْوًا من الْهَوَى
وعيناً على ذكر الهوَى ليس تَذْرِفُ
وإنّى لأهوَى كلَّ مَنْ قِيل عاشقٌ
ويزداد فى عينى جلالاً ويَشرُفُ
وما العشقُ فى الإنسان إلا فضيلةٌ
تُدَمِّثُ مِنْ أخلاقه وتُلَطِّفُ
يُعظِّم مَنْ يهوَى ويطلبُ قُرْبَه
فتكثُر آدابٌ له وتَظَرُّفُ

* * *

أعشَقُ الحُسْن والملاحةَ والظَّرْ
فَ وأهوَى مكارمَ الأخلاقِ

* * *

إنى لأهْوَى الحسنَ حيثُ وجدتُه وأهِيمُ بالغُصنِ الرشيقِ وأعشَقُ

* * *

فكلُّ ضَلالٍ فى هواكَ هدايةٌ وكلُّ شقاءٍ فى هواكَ نعيمُ

* * *

لامَ فى الحبِّ أُناسٌ وهْوَ أخلاقُ الكرامِ
ما أرى الناسَ سوى العشَّـ ـاقِ من كلِّ الأنامِ

ويقول :

جزى الله عنِّى الحبَّ خيراً فإنه به أُزداد مجدى فى الأنامِ وعَليائى
وصَيَّر لى ذكراً جميلاً لأننى أحسِّنُ أفعالى لتحسُنَ أسمائى

وقد يكون فى هذا النظم بعضُ الضعف ، ولكنه يعبر عن معنى من أشرف المعانى وألطفها .

وغزل البهاء زهير فن فى الأدب العربى خرج عن صُوَر الغزل التى رسمتها التقاليد : فليس بكاءً على الأطلال والدِّمن ، ولا وصفاً لسفر الحبيب على ناقته تجوب الصَّحراء ، ولكنه حكايةٌ لما يجرى بين الأحباب فى الحياة وما يتبادلونه من حِوَار وعِتاب ، ونعتٌ لمجالسَ مُمْتِعة بين عاشقين ، ووصفٌ للحبّ نفسِه وما يُحدث فى نفس المحب من نزُوع إلى الكمال .

وقصائد البهاء زهير تكون عبارة عن موضوع متّصل المعانى لا تجد فيه ما تجد فى غالب الشعر العربىّ من تَنَقُّل واُستطراد يكاد يفقد الصلة بين أجزاء الشعر الواحد . ويُلاحَظ أنّ البهاء زهيراً لا يتحرّج من استعمال العبادة فى الحب ، وهو نادر فى الشعر العربى ، وذلك كقوله :

ومن العجائب فعلُه بمحبِّه ... يُصلِيه ناراً وهو من عُبَّاده

وقوله :

سأشكر حُبًّا زانَ فيك عبادتى ... وإن كان فيه ذِلَّةٌ وخضوعُ
أُصَلِّى وعندى للصبابةِ رقَّةٌ ... فكلُّ صلاتى فى هواك خُشوعُ

وقوله :

لى حبيبٌ عبدتُه ... ويحَ مَنْ يعبُد الوَثَنْ

ومن الفنون الجديدة فى شعر البهاء زهير تسجيلُه لمشاهد وصُوَرٍ تَنِمّ عن حبّه لوطنه ، وتذوُّقه لما فيه من نعيم طَبَعىّ وغير طَبَعى ، ونذكر من أمثلته :

لله بُستانى وما ... قَضَّيتُ فيه من المآربْ
لهفِى على زَمَنِى به ... والعيشُ مُخْضَرُّ الجوانبْ
وَلَكَم بَكَرْتُ له وقد ... بكرتْ له أيدى السحائب

فيروقُنى والجـــوّ منـ ـهُ ساكنٌ والقَطْرُ ساكب
والطَّلّ فى أغصـــانهِ يحكى عُقوداً فى ترَائبْ
وتَفتَّحتْ أزهـــارُه فتأرّجت منْ كلّ جانب
وبَدا على دَوْحاته ثمَرٌ كأذناب الثعـالب
وكأنمـــا آصـــاله ذَهَبٌ على الأوراق ذائبْ
فهناك كَمْ ذهبيّـــةٍ لى فى الوَلُوعِ بها مذاهبْ

* * *

عَلَا حِسُّ النـــواعيرِ وأصـــواتُ الشّحاريرِ
وقد طابَ لنـا وقتٌ صَـفَا من غيرِ تـكديرِ
فقُـمْ يا ألفَ مولاىَ أَدِرْها غـــيرَ مأمورِ
وخُـذْها كالدنانير على رَغْمِ الدنانيرِ
أَدِرْها من سَنَا الصُّبْحِ تَزِدْ نورًا على نورِ
عُقـارًا أصبحتْ مثـ ـلَ هَباءٍ غيرِ منثـورِ
دتْ أحسنَ من نارٍ رأتْها عينُ مقرورِ
نزلنـا شاطئَ النِّيـلِ على بُسْـطِ الأزاهيرِ
وقـد أضحَى له بالموْ جِ وجهٌ ذو أسارير
وفى الشَّطِّ حَبَابٌ مثـ ـلَ أنصافِ القوارير

تَسَابَقْنا إلى اللَّهوِ ووَافَينَا بتَبكيرِ
وفينا رَبُّ محرابٍ وفينا رَبُّ ماخورِ
ومن قومٍ مَساتيرِ ومن قوم مساخيرِ
ومن جِدٍّ ومن هَزلٍ ومن حَقٍّ ومن زُورِ
فطوراً فى المقاصيرِ وطوراً فى الدساكيرِ
ورهبان كما تدرى من القِبْطِ النحاريرِ
وفيهم كلُّ ذِى حُسْنٍ من الإحسان موفورِ
وتالٍ للمزاميرِ بصوتٍ كالمزاميرِ
وفى تلك البرانيسِ بدورٌ فى دياجيرِ
وجوه كالتَّصاويرِ تُصَلِّى للتصاويرِ
ومِنْ تحتِ الزنانيرِ خصورٌ كالزنابيرِ
أتيناهم فما بَقَّوْا ولا ضَنّوا بمذخورِ
لقد مَرّ لنا يومٌ من الغُرِّ المشاهيرِ
على ما خلتَه من غيرِ ميعادٍ وتقديرِ
فقل ما شئتَ من قولٍ وقدّر كلَّ تقديرِ

ويستطيع الناظر فى شعر البهاء أن يَستخرج أحوالَ عصره فى كثير من الشؤون : فهو يُشير إلى عادات وشؤون دينية وغير

دينية . وموضوعات شعره متصلة بعواطفه و بحياة زمنه أشد الاتصال ؛ بخلاف غيره من الشعراء الذين يكون شعرهم صورة لحياة غير حياتهم ، وعواطف غير عواطفهم .

وهذه نَمَاذِجُ مما يتضمّنه شعر البهاء زهير من شؤون عصره :

أنا فى الحبِّ صاحبُ المعجزاتِ جئتُ للعاشقين بالآياتِ
كان أهلُ الغرام قبلى أُمِّيِّـ ـين حتى تلقَّنوا كلماتى
فأنا اليوم صاحبُ الوقتِ حَقًّا والمحبُّون شِيعتى ودُعاتى
ضُرِبتْ فيهمُ طُبُولى وسارتْ خافقاتٍ عليهمُ راياتى

* * *

تَكَهّنتُ فى الأمرِ الذى قدلَقِيتُه ولى خَطَرَاتٌ كلُّهن فتوحُ

* * *

واللهِ مُذْ فارقتُكم لم تَصْفُ لى مَوَارِدِى
فهل زمانى بعدَها بقربكم مُساعدى
فكم نُذورٍ أصبحتْ علىّ المساجِدِ

* * *

أيا مَعْشَرَ الأصحابِ مالى أراكمُ على مذهبٍ واللهِ غيرِ حميدِ
فهل أنتمُ من قومِ لوطٍ بَقيّة فما منكمُ مَنْ فعلُه برشيدِ

فان لم تكونوا قومَ لوطٍ بعينهم فما قومُ لوطٍ منكمُ ببعيدِ

* * *

وجاهلٍ يَدَّعى فى العلم فلسفةً قد راحَ يكفر بالرحمنِ تقليدا
وقال أَعرِفُ معقولاً فقلت له عَنَّيتَ نفسَك معقولاً ومعقودا
من أين أنتَ وهذا الشىءُ تذكرهُ أراكَ تَقْرَعُ باباً عنك مسدودا
فقال إنَّ كلامى لستَ تفهَمُهُ فقلتُ لست سليمانَ بنَ داودا

* * *

إذا ما أفَضْنا فى أفانينِ ذكره
يقول جهولُ القومِ قد عَبَرَ الخَضْرُ

* * *

وصاحبٍ أصبح لى لائماً لمَّا رأى حالةَ إفلاسى
فقلتُ له إنّى امرؤٌ لم أزَلْ أُفنِى على الأكياسِ أكياسى
ما هذه أوّلُ ما مَرَّ بى كم مثلها مَرَّ على راسى
دَعْنِى وما أرضَى لنفسى وما عليك فى ذلك من باسِ
لو نظر الناس لأحوالهم لاشتغل الناسُ عن الناسِ

* * *

قَلَّ الثِّقاتُ فلا تَرْكَنْ إلى أحدٍ فأسعدُ الناسِ مَنْ لا يعرف الناسَا

لم ألقَ لى صاحباً فى الله أصحَبُه وقدرأيتُ وقدجَرّبتُ أجناسا

* * *

قصدتُكمُ أرجو انتصاراً على العِدَا
حَسِبتُكمُ ناساً فما كنتمُ ناسا
فلم تمنعوا جاراً ولم تنفعوا أخاً
ولم تدفعوا ضَيماً ولم ترفعوا راسا

* * *

لمّا الْتَحَى وتبدّلت تلك السعودُ له نُحوسا
أبديتُ لما راح يحـ ـلِقُ خَدَّه معنًى نفيسا
وأذعتُ عنهُ أنّه لم يَقصِدِ القصدَ الخسيسا
لكنْ غدَا وعذارُه خَضْرٌ فساق إليه موسى

* * *

ما أصعَبَ الحاجةَ للناسِ فالغُنْمُ منهم راحةُ الياسِ
لم يَبقَ فى الناس مُوَاسٍ لمن يُظهر شكواه ولا آسِى
و بعد ذا مالَكَ عنهم غِنًى لا بُدَّ للناس من الناسِ

* * *

أأحبابَنا حاشا كمُ من عيادةٍ
فذلك أمرٌ فى القلوب مَضِيضُ

وما عاقنى عنكم سوى السَّبتِ عائقٌ
فنى السبتِ قالوا ما يُعاد مريضُ
وللناس عاداتٌ وقد ألفوا بها
لها سُنَنٌ يَرعَوْنها وفروضُ
فَمَنْ لم يُعاشِرْهم على العُرْفِ بينهم
فذاك ثقيلٌ بينهمْ وَبَغِيضُ

* * *

وقائلةٍ لما أردتُ وَدَاعَها حبيبى أحَقًّا أنت بالبين فاجعى
فيارَبِّ لا يَصْدُقْ حديثٌ سَمِعتُه لقد راعَ قلبى ماجَرَى فى مَسَامعى
وقامت وراء السِّترِ تبكى حزينةً وقد نَقّبتــه بيننا بالأصابعِ
بكتْ فأرتنى لؤلؤاً متناثرًا هَوَى فالتقته فى فُضول المقانعِ
ولما رأتْ أنّ الفراقَ حَقِيقةٌ وأنّى عليه مُكرهٌ غيرُ طائع
تَبَدَّتْ فلاوالله ماالشمسُ مثلُها إذا أشرقتْ أنوارُها فى المطالعِ
تُسَلِّمُ باليُمنى علىّ إشارةً وتَمْسَحُ باليسرَى مجارى المدامعِ
وما بَرِحتْ تبكى وأبكى صبابةً إلى أن تركنا الأرضَ ذاتَ نقائعِ
ستُصْبِحُ تلك الأرضُ من عَبَراتنا
كثيرةَ خِصْبٍ رائق النبت رائعِ

***

أيها النفسُ الشريفهْ إنما دنياكِ جِيفَهْ
وعقولُ الناس فى رَغْـ ـبتهم فيها سَخِيفَهْ
آهِ ما أسعَدَ مَنْ كا نَ رَتُه فيها خَفِيفَهْ
أيها المسرِفُ أكثرْ تَ أبازير الوظيفه
أيها المغرور لا تَفْ رَحْ بتوسيعِ القطيفه
أيها المسكينُ هَبْ أنّـ ـك فى الدنيا خليفه
هل يَرُدُّ الموتَ سلطا نُك والدنيا الكثيفه

***

كلامِى الذى يصبو له كلُّ سامع
ويهواه حتى فى الخدور العواتقُ
كلامى غَنِيٌّ عن لحونٍ تَزِينُه
له مَعْبَدٌ من نفسه ومُخَارِقُ
لكلِّ امرئٍ منه نصيبٌ يَخُصُّه
يُلائم ما فى طَبْعِه ويوافقُ
يُغَنِّى به النَّدْمانُ وهْوَ فكاهةٌ
ويُنشده الصُّوفىّ وهو رقائقُ

به يقتضى الحاجاتِ مَنْ هو طالبٌ
ويستعطف الأحبابَ مَن هو عاشقُ

* * *

تعلمتُ خَطّ الرملِ لمّا هَجَرْتُمُ لعلّى أرى شكْلاً يدُلّ على الوصلِ
ورَغّبنى فيه بياضٌ وحمرةٌ عَهِدتُهما فى وجْنةٍ سَلَبَتْ عقلى
وقالوا طريقٌ قلتُ يارِبِّ للرِّضى وقالوا اُجتماع قلت يارِبِّ للشَّمْلِ
فأصبحْتُ فيكم مثلَ مجنونِ عامرٍ فلاتُنكروا أنّى أخُطُّ على الرملِ

وإذا كان البهاء زهير شاعرَ مهنة فى مدائحه غالباً ، فهو فى سائر قريضه شاعر الطبع ؛ وله نفثات تجلّى نفسَه على ماهى عليه وترسمُ سجاياها ، كقوله :

يا سائلى عمّا تجَدَّدَ بى الحالُ لم تَنقُصْ ولم تَزِدِ
وكما علمتَ فإنّنى رجلٌ أفْنَى ولا أشكو إلى أحدِ

* * *

ومِنْ خُلُقى أنّى ألوفٌ وأنّه
يطول التفاتى للذين أُفارِقُ
يحرِّك وجدى فى الأراكة طائرٌ
ويبعَثُ شَجْوِى فى الدُّجُنّةِ بارق

وأُقسِمُ ما فارقتُ فى الأرض منزلاً
ويُذكر إلّا والدموعُ سوابقُ
وعندى من الآداب فى البعدِ مؤنسٌ
أُفارِقُ أوطانِى وليس يُفارِقُ
ولى صبوة العُشَّاقِ فى الشعرِ وحدَه
وأمّا سواها فَهْىَ مِنِّىَ طالقُ

* * *

مذ كنتُ لم تَكُنِ الحيا نةُ فى المحبّة من خَلَاقِ
ولقد بَكَيتُ وما بكيتُ من الرياءِ ولا النّفاقِ
برقيقةِ الألفاظ تحْ كى الدمعَ إلّا فى المَذَاقِ
لم تدرِ هل نطقتْ بها الـ ـأفواهُ أم جَرَتِ المآقى
لَطُفَتْ معانيها ورَقّـ ـتْ والحلاوةُ فى الرِّقاقِ
مِصْرِيّةٌ قد زانَها لطفاً مجاورةُ العِراقِ

* * *

كذلك تلقانى إذا ما ذكرتَنى يَسُرُّ حِفَاظِى صاحبى وقرِينى
إذاقلتُ قولاً كنتُ للقولِ فاعلاً
وكان حَيَائى كافِلى وضَمِينِى

تُبَشِّرُ عنّى بالوفاءِ بَشَاشتِي وَينطِقُ نورُ الصِّدقِ فَوقَ جبينى

* * *

إلى كم مُقامِي فى بلادِ مَعَاشرٍ تَسَاوى بها آسادُها وذئابُها
وقلّدتُها الدُّرَّ الثمينَ وإنه لَعَمْرُكَ شيءٌ أنكرتْه رِقابُها
وما ضاقتِ الدنياعلى ذى مُروءةٍ ولا هو مسدود عليه رِحابُها

* * *

وإنى إذا أُرتاب الوشاةُ لأدمعِى لدى حُجَجٍ لم يُبْدِها عاشق قَبْلى
واستعمل الكحلَ الذى فيه حدَّةٌ
وأوهمُ أن الدمع من شدة الكُحلِ
فياصاحبى أَمَّا علىّ فلا تَخَفْ فما يَطْمَعُ الواشون فى عاشقٍ مثلى
ودَعْنِيَ والعُذَّالَ مِنِّى ومنهمُ سَيدْرون مَنْ منّا يَمَلُّ من العَذْلِ

وكتب إلى الوزير فخر الدِّين أبى الفتح عبد الله بن قاضى داريا يشكو إليه بعض غِلمانه :

سواكَ الذى وُدِّى لديه مُضَيَّعُ وغيرُكَ مَنْ يسعَى إليه مُخَيَّبُ
ووالله ما آتيكَ إلا مَحَبَّةً وإنِّى فى أهلِ الفضيلةِ أرغبُ
فما لِيَ ألقَى دونَ بابكَ جَفْوةً لغيرك تُعْزَى لا إليك وتُنسَبُ
أُرَدُّ بردِّ الباب إن جئتُ زائراً فياليتَ شعرى أين أهلٌ ومرحبُ

ولستُ بأوقاتِ الزِّيارةِ جاهلاً ولا أنا ممَّن قُرْبُهُ يُتجَنَّبُ
وقد ذكروا فى خادم المرء أنّه بما كان من أخلاقه يَتهذَّبُ
فهَلَّا سَرَتْ منك اللطافةُ فيهمُ وأَعْدَتْهمُ آدابُهـا فتأدَّبوا
ويَصعُبُ عندى حالةٌ ما أَلِفْتُها على أنَّ بُعدِى عن جنابك أصعبُ
وأمسِكُ نفسى عن لقائك كارهاً
أُغالب فيك الشَّوْقَ والشوقُ أغلبُ
وآنَفُ إمَّا عِزَّةً منك نِلْتُها وإما لإدلالٍ به أتعتَّبُ

* * *

أغار على حرف يكون مِن اسمها إذا مارأته العينُ فى خَطّ كاتبِ

* * *

فلَكَمْ فِىَّ من مكارِمَ خُلْقٍ ولَكَمْ فىَّ من حميدِ صِفاتِ
لستُ أرضَى سوى الوفاءِ لذى الودِّ ولو كانَ فى وفائى وَفاتِى
وأَلوفٌ فلو أفارقُ بؤساً لتوالت لفقده حَسَراتِى
طاهرِ اللفظِ والشمائل والأخـ ـلاقِ عفُّ الضميرِ واللّحَظاتِ
ومع الصمتِ والوقار فإنِّى دَمِثُ الخُلْقِ طَيِّبُ الخَلَوَاتِ

* * *

ومِنْ خُلُقِى المشهورِ مذ كنتُ أنَّنى
لغـير حبيبٍ قطُّ لن أتذَلَّلا

وقد عِشتُ دهراً ما شكوتُ لحادِثٍ
بلى ! كنتُ أشكو الأغيَدَ المُتدَلِّلا
وما هُنْتُ إلا للصـــــبابةِ والهوَى
وما خِفتُ إلا سطوةَ الهجرِ والقِلَى
أروح وأخلاقى تذوبُ صــبابةً
وأغــدُو وأعطافى تسيل تَغَزُّلا
أُحِبّ من الظبيِ الغــريرِ تلفُّتاً
وأَهوَى من الغصنِ النضيرِ تَفَتُّلا
فما فاتنى حَظِّى من اللَّهوِ والصِّبَا
وما فاتنى حظِّى من المجدِ والعُــلا

* * *

أيهـا الحاملُ هَمًّا إن هـذا لا يدومُ
مثـلَ ما تفنى المســرّاتُ كذا تفنى الهمومُ

* * *

حبّــذا نفحةُ ريحٍ فرّجتْ عنِّىَ غُمَّهْ
ضربتْ ثوب فتاةٍ أكثرتْ تِيهاً وحِشْمَهْ
فرأيتُ البطنَ والسّـ ـرَّةَ والخَصْرَ وثَمَّهْ

* * *

أنا بالفراق مُرَوَّعٌ أبداً ذا طالعي فيه وذا نجمي

* * *

أُحِبّ من الأشياء ما كان فائقاً وما الدُّونُ إلّا مَنْ يميلُ إلى الدُّونِ
فأهجر شربَ الماء غيرَ مُصَفَّقٍ زُلالٍ وأكلَ اللحمِ غيرَ سَمينِ
وإن قيل لي هذا رخيصٌ تركتُه ولا أرتضي إلا بكلّ ثمينِ

* * *

خَلِّني من تَصَنُّعٍ للورَى أو تَزَيُّنِ
فلعمري يَرِيبُني فرطُ هذا التسنّن

وقال وقد سمع إنساناً يقدح في رجل صالح من مشايخ الصوفية :

أيقدح فيمن شَرَّف الله قدرَه وما زال مخصوصاً به طيّبُ الثّنا
لعمرُك ما أحسنتَ فيما فعلتَه وليس قبيحُ القولِ في الناس هيّنا
فيا قائلاً قولاً يسوء سماعُه بحقّكَ نَزِّهْنا عن الفحشِ والخَنا
نطقتَ فلم تُحسِنْ ولم تَبْقَ ساكتاً لقد فاتك الأمرُ الذي كان أحسنا
دَعِ القومَ إن القوم عنك بمَعْزِلٍ وإنّك عن هذا الحديثِ لفي غِنى
رجالٌ لهم سِرٌّ مع الله خالصٌ ولا أنت من ذاك القبيل ولا أنا
تكلّفْتَ أمراً لم تكن من رجاله لك الويلُ من هذا التكلُّفِ والعَنا

تميل إلى الدنيا وتُبْدِى تَزَهُّدًا ولا أنت معدودُ هناكَ ولا هنا

وفى كتاب « النجوم الزاهرة » فى ترجمة البهاء زهير :

« وبرع فى النظم والنثر والترسل ، وله الشعر الرائق الفائق . وكان رئيساً فاضلاً ، حسن الأخلاق . . . ومن شعره :

ولما جفانى مَنْ أُحِبّ وخاننى حفظت له الودّالذى كان ضَيَّعا

ولو شئتُ قابلتُ الصدودَ بمثله ولكنَّنى أبقيتُ للصلح موضعا

وقد كان ما قد كان بينى وبينه أكيداً ولكنى رعيتُ ومارعى

سعى بيننا الواشى ففرّق بيننا

لك الذنبُ يا مَنْ خاننى لا لِمَنْ سعى

وكتب عند موته بالديار المصرية ، على يد ولده صلاح الدين ، إلى محمد بن الحكيم عماد الدين الدير ينى ، وهو آخر ما قاله :

ما قلتَ أنت ولاسمعتُ أنا هذا حديثٌ لا يليقُ بنا

إنّ الكرامَ إذا صَحِبتَهُمُ سترُوا القبيحَ وأظهروا الحَسَنا